ثلاثية عبد الجليل الغزال

حافة النسيان



أحمد علي الزين

رواية

دار الساقي

أحمد علي الزين

حافة النسيان

ثلاثيّة عبد الجليل الغزال

رواية

دار الساقي

بيروت ـ لندن

عبد الجليل الغزال، الناجي الوحيد منِ السجن الصحراوي، يتوكّأ على عكّازه ويجرّ جسده المعطوب تائهاً في الصحراء، ساعياً للوصول إلى قريته الأولى «وادي الدموع». يرافقه كلب السجان الذي أصبح رفيقه وأليفه في هذا التيه.

في لهيب الصحراء، لا يجد عبد الجليل ملجأً غير الذكريات، بكل نداوتها وثقلها وقسوتها: ذكريات السجن القريبة وحكايات السجناء والسجّانين، الهجرة القسرية من قريته الأولى، شغفه الأول، اختطافه من بيروت ووجه حبيبته هدى...

بين السجن، والحرية المفتوحة على العدم، والماضي بآلامه المبرّحة، دائرة يحاول عبد الجليل الخروج منها عائداً إلى وجوده الإنساني.

حافة النسيان

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

خطوط العناوين: علي عاصي

الطبعة الأولى ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-641-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ٥٣٤٢/١١٣ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٢٠٣٣ ـ ٦١١٤
هاتف: ٨٦٦٤٤٢-٩٦١١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣-٩٦١١

e-mail: info@daralsaqi.com

«إذا ضاقت بك الدُنيا، فسرْ...»

النفري

بدوت لنفسي فريسةً أخطأها الموت فزاولت عرجها الطويل.

عبد الجليل الغزال

وأتيت بكيس، جمعت فيه ما أمكن حمله من طعام وخبز وتمر. معلبات لحوم وجدتها في غرف الحرس، تحت الردم. عبأتُ ماءً من الصهريج الأزرق، عبأته في «مطرات» وهي قِرَبٌ خاصة بالجنود. يحملونها معهم إلى الجبهات أو في المهمات الطويلة الأمد في نواحي الخلاء.. وضعتُ رأسي تحت سكر الصهريج المتدفق، وتبحبحتُ في غسله وفركه. وددتُ لو أن ماءه يتسرب إلى داخلي ويغسل أعماق نفسي الفاحمة.

نفضتُ رأسي مثل كلب أصابه البلل..

نظرتُ في المدى الإلهي.. امتدت أمامي الصحراء بجلالها العدميّ.

ارتعشتُ..

لم تكن لدي قدرة وهمّة كافية للمشي. ولكني مشيت، ولا أعرف أي الجهات أقصد، غرباً أو شرقاً، جنوباً أو شمالاً، لا جهات هنا، الجهات ممحوة في هذه اللحظة. هي أيضاً مصابة ببلاء التيه..

ليس لديَّ قدرة، ولا تقدير لشيء.

كانت الأمور تتمّ بمعزلٍ عن التخطيط، فقط، كان شيء غامض في داخلي يشبه الرغبة في المشي، أو الاندفاع في هذا الخلاء.. أظنها من

بقايا طبعي الرعوي في تلة سليمان، وطن أهلي، الوطن الثاني، بعد شتاتنا من وادي الدموع.

خرجتُ من فتحة في الجدار، يتدفق منها شلال هائل من الضوء. ومشيت...

سمعت خلفي نباحاً، كالذي كان ينهش صمت الليل، في محاولات الهروب التي كانت تُدبّر للسجناء بغاية التخلّص من فائضهم، وممن أصابهم المس...

النباح أقلّ إلحاحاً وشراسة، لكنه أخافني، فضاعفت من عزيمتي. شحنت روحي برغبة الحياة، استعرتها من شجرة فائض خضارها، تمايلت في ذاكرتي على مهب الهواء...

فوليت وجهي نحو اللامكان...

قدمي اليسرى لا تسعفني، هي علّةٌ أو «عالة» عليَّ كما يقال، حمل زائد، لا نفع لها على الإطلاق، أجرّها خلفي كخرقة بالية، أو كغصن يابس.. وأتوكأ على عكازي.

وعكازي عارضة لباب شلّعه القصف في تلك الليلة، الأرجح باب الحرس. أعرف خشبه من رائحته. أعشق رائحة الخشب.

لا أعرف كيف صارت في يدي، وصارت عكازي، وسوّيت قبضتها بشكل يتسع لراحة يدي، رفعتها، بنية معرفة ثقلها، شحنت عزيمتي، فانتشيت كفارس يستعد لخوض آخر المعارك...

قطعة هزيلة من الخشب عوّضت بعض هزالي!!؟

ابتسمت، وقلت: الكتّاب يصرفون جلَّ عمرهم في الاتكاء على الاستعارة، لتمتين النّصّ، وأنا استعرت لجسدي عكازاً لتمتينه. العكاز بدل من ضائع. راقني هذا التشبيه، وعجبت من حضوره في بالي وأنا في غير حال، خارج المكان والزمان... فتابعت عرجي، مستهلاً بداية التيه في امتحان قدراتي وتهكمي على هذا المشروع الفاشل، الذي هو أنا: عبد الجليل الغزال.

ثمَّ بعد حين بدا لي النباح معادياً، موحياً بالمطاردة والانقضاض، أعرف هذه الحالة.

صرت أتخيل جسدي المعطوب فريسة بين مخالب ذلك اللعين فيما لو وهن عزمي، أو استسلمت.

ضاعفت من سرعتي، ففشلت وشتمت ساقي، قلت لها كلاماً نابياً. حقّرتها، وحقّرت نفسي... تابعت سيري على قدر استطاعتي. ثمّ خالجني شيء من الندم.

وافتكرت في أمر بقائي هناك.

وهناك ماذا سأفعل؟

هناك في سجن شبه ركام، أضحى مهجوراً، تتصاعد منه أبخرة الموت وتئن في زنازينه وممراته أرواح أطياف بشرية.

ماذا سأفعل، لو بقيت هناك؟

أنتظر مَن؟

مَن سيأتي، أو يمر في هذا الخراب؟

لم تكن سوى سحابات من الندم، أتت من المجهول، وحامت فوق نفسي، وصرت أزين وأرجح بين احتمال بقائي، وعدمه، بين مكوثي في سجن لا سجان فيه ولا سجين سواي، وبين السير في هذا المجهول. أمران متعادلان، في كل منهما أمل شحيح بالنجاة، أو باحتمال أن أحداً يعثر عليَّ، أو ألتقي به في هذا العالم المهجور كلياً، والمتروك للهباء والنسيان.

هنا، أو هناك، سيّان وسط هذه الصحراء، حيث لا أدري كيف جيء بي، ومن أي الجهات حملوني قبل سنين، في تلك الشاحنة التي لم أذكر منها سوى صوت محركها الفاجر، وصوت سائقها الذي كان يغنّي أحياناً:

لامشي لكم بالليل يا عنيّد

يا يابا

هيّا، على هيّا

وإن تعبت الرجلين يا عنيّد

يا يابا..

لامشي ع إيديّا..

كنت وأربعة رجال آخرين، هكذا، قدّرت عددهم، من سعالهم وأنينهم، إذ إننا جميعاً كنا معصوبي الأعين، مكبّلي الأيدي والأرجل بجنزير واحد.

مشينا نهاراً كاملاً. بادلونا عند المساء بآخرين على الحدود.

أعرف الحدود من رائحتها، أعرفها من اللهجات، أعرف رائحة بلادي الأولى، وطني الأول؛ ولهجة أهلي، هي من الأشياء التي لا يمحوها الزمان.

أشياء كثيرة أعرفها من رائحتها، هذه واحدة من خصالي، أو من مواهبي المتوارثة من تلة سليمان. أول رائحة حفرت في نفسي واستقرت، هي رائحة الجوري بين نهدي مريم. ماتت مريم وبقيت الرائحة. كنت أعرف القادم نحوي، من رائحته قبل أن يصل ويفتح باب زنزانتي، وأميّز بين رائحة السجّان ورائحة السجين.

وأعرف رائحة التبدّل في الهواء، عندما كانوا يقودونني جرّاً من زنزانتي إلى غرف التحقيق، أعرف الغرف من رائحتها، وأدرك للتو نوع التعذيب إن كان يدوياً أو آلياً. وعندما كانوا يضعون كيساً في رأسي كنت أعرف أن هذا الكيس كان يحمل بريداً، أعرفه من رائحة حبر الأختام، أو أنه وضع سابقاً في رأس شيبان، أو مصطفى، أو عامر الدليمي، أو هو كيس كان يحتوي على الحبوب، أو الفاكهة...

مرة وضعوا في رأسي شيئاً، لم أفلح في تمييز رائحته، لكنه صلب بعض الشيء، وصلابته هشّة معرّضة للتفتت، أو الكسر.

عرفت لاحقاً أنها قرعة خاوية، كان آمر السجن في ساعات سأمه يتسلى بوضع القرع في رؤوسنا، يخمّن من نكون، من قاماتنا.

كان يعرفني دون عناء، لعلامتي الفارقة، عرجي.

كان يخطئ، ويسمّي أحداً بدل أحد، فالح بدل عامر... ويقهقه

ضارباً كفاً بكف. كنت أجفل من قهقهته، أكثر من صمته الغدّار.

العسكر، عسكر يتشابه في كل مكان...

قبل أن يبادلونا على الحدود، في مساء ذلك اليوم، كانت الخِسة في مستواها الحضيضي. لقد ذقت وسمعت أشياء، سأروي عنها إذا ما نجوت من متاهتي هذه، لشدّة دناءتها ورخصها.

بعد إتمام عملية المبادلة من صندوق شاحنة إلى أخرى، خفّ منسوب الدناءة، لعلّهم كانوا أكثر سأماً، أولئك الجنود الذين رافقونا في الشاحنة إلى السجن الصحراوي. كانت أسئلتهم عابرة متهكمة، ولكماتهم أخف، وإن كانت سيّلت خيطاً من الدم من أنفي.

حبست وجعي في قفص روحي، وطحنت غضبي بين أسناني. كان قد مضى على هذا التاريخ ربع قرن، خمس وعشرون سنة، يوم خرجت في العبّارات من بيروت إلى قبرص، ثم لا أدري كيف حملتني أقداري إلى هذا المصير.

هو الشوق ربما، أو خصال الحنين.

هو الشوق إلى هدى، أعادني إلى بيروت، لكنه لم يستطع أن يخبئني مثلما خبأتني هدى في أول ليلة، وضمتني إلى روحها، وأنا في اشتعالات عالية من الشوق.. لم يستطع أن يفعل شيئاً، ولم تستطع هدى، حين جاؤوا، وطرقوا الباب، وحملوني كشاة كسيحة، متدحرجاً على الدرج، إلى صندوق السيارة، أطبقوا عليَّ ومضوا، لأمضي عمري في هذا السجن اللعين، هنا وسط هذا الخلاء الذي أجرّ فيه، وعليه ساقي،

وتترك خلفها، زيحاً أو ثلماً يشبه حفرة السنين في عبورها الفتّاك. حفرة غائرة في النفس كثلم التجاعيد، مضافاً إليه ألم لا شفاء منه، خمس وعشرون سنة، أبطأ بكثير من تعداد أيامها...

لا شيء يتبدل هنا. والذي يحرك سكونية الزمن ويغيّر في المكان، هو صدف كصدفة نجاتي، وسعيي وعبوري فيهما... لا شيء يتبدل هنا سوى ما تفعله الريح في إعادة تأليف الكثبان، تمحو وتؤلف، مثلما محوت وكتبت قصائد الهوى لهدى، في وادي أبو جميل في بيروت في تلك الأيام...

ولاحظت أنه بدأت تنتابني لحظات تأملية خاطفة، تسرقني من الذي أنا فيه. كمسألة تفكيري بلعبة الزمن، أو بفعل التشبيه الذي قمت به بين الكتابة والمحو، وفعل النسائم في الكثيب المتثائب أمامي كامرأة ضحوية.

وافتكرت بزملائي الذين تركتهم خلفي. ما كان بوسعي فعل شيء لإنقاذهم، فتركتهم لموتهم ومشيت، هم أموات لا محال. وإن لم يزال بعضهم ينظر بعينين ذاهلتين نحو الضوء الدالف من الكوى التي أحدثها القصف في الجدران، بدا حين خرجت الشمس من مستقرها الليلي، شلالات دفاقة من الضوء والدخان، أحزمة هائلة تساقطت دفعةً واحدة، لكأن الله سلّط هذه الأضواء، ليتفقّد ساحة الجريمة، وأعداد القتلى...

رأيتهم، رأيتهم كلّهم، لم يبق منهم أحد حياً. شيبان الحمصي، لا أعرف إن كان هذا اسمه الحقيقي. عندما شاهدني ألملم بعض معلبات الطعام، نظر إليَّ بعينين كلهما رجاء أن أفعل شيئاً، قلت له ماذا بوسع ميّت أن يفعل لميت يا شيبان؟ رفع يده قليلاً ولوّح بها، ثم ارتمت من تلقائها على أرض الممر، وشيبان لا يدري ما هي التهمة التي جنت عليه بالمؤبد في السجن الصحراوي. هو راع كما كان يروي لي، لا علاقة له بشيء، كان يرعى غنمه في خلوات قريته، عندما دقت ساعة النحس كما يقول، وجاءه حسان ابن خالته ليُودِع معه كتباً ورسائل، أمانةً يسعيدها بعد عودته من التجنيد. وشيبان لا يكتب ولا يقرأ، ولا عرف ماذا سيفعل بهذه الأمانة، وأين سيخبئها، إلى أن فطن إلى مخبأ لها في الحظيرة... وفي واحدة من تلك الليالي التي كان يبحث فيها أمن الدولة عن «المناوئين والخونة»، عثروا في حظيرة شيبان، على تلك الكتب والرسائل، وكانت كافية في نظرهم لتجعله واحداً من «المنظّرين الكبار» ومن المخططين القادة في حركة انقلاب يُحضّر لها، «منظّر متخفٍ في هيئة راعٍ أمي»، هكذا جاء في محضر المحقق.

كثيراً ما كنت أمازحه عندما يصعد مزاج السأم إلى مستواه الموحي بالانتحار، وأردد أمامه هذه التهمة. كان شيبان يضحك ويشتم ابن خالته الذي اختفت آثاره... «منظّر خطر متخفٍ في هيئة راعٍ أمّي»...

تركتهم جميعاً، شيبان، وعدنان الأسدي، ومصطفى شبلي و...

وطيف امرأة، مصلوبة على النافذة، لا أدري ماذا حلّ بها بعد تلك الليلة البعيدة التي جاؤوا بي خلالها إلى غرفة مظلمة، معصوب العينين كالعادة، ولم يكن من داعٍ لكي يعصبوا عينيَّ، في مثل هذه العتمة الحالكة، وعندما انتزعوا العصبة عن عينيَّ، لم أرَ، فظننت أنني أصبت بالعماء، وصرخت لألم اجتاح عمودي الفقري، هو وخز حربة شديدة الفتك، وجدتني جاثياً على ركبتي. ومع صراخي أشعل الضوء: رأيت امرأة مثبتة على حديد النافذة لكأنها مصلوبة، رأسها مائل على كتفها اليسرى، وشعرها منهدل غطى نصف وجهها، فستانها المزهر ممزّق عند صدرها، حافية، خيط رفيع من الدم على ساقها البيضاء، لكأنها ميتة..

تعرفها؟ تعرف هذه القحبة، وقع الصوت على رأسي «فجاً». تقدم منها، شال شعرها عن وجهها ، تعرفها؟... ودارت الأرض دورات عديدة.. لم أعِ ما حدث في تلك الليلة.

عندما صحوت وجدتني عارياً، وبالقرب مني حطام تلك السيدة.

عرفت لاحقاً، أنها هيفاء، زوجة السجين فرحان داوود. ومن لا يعرف حكاية فرحان وقصيدته:

مين أمنك ما تخون

ولو كنت خوّان؟

صارت على كل لسان...

تخيّل، قال لي مصطفى شبلي إن أولئك الأوغاد جاؤوا بها إلى السجن، وعرّوها أمام زوجها و...

لم يكمل لي الحكاية في ذلك اليوم. لقد أصيب بواحدة من نوباته في مناجاة الله أن يتدخل لوقف هذه الفضيحة.

هل تمتحن إيماني بك يا الله..؟ ويصرخ، فيرتج السجن... هل تمتحن أيوب في حطام هذه السيدة؟ و...

لقد أكمل لي حكاية فرحان داوود لاحقاً. وعرفت أنني واحد من الذين جيء بهم في تلك الليلة، ليتناوبوا على هتكها أمام زوجها...

كل ما فعلته، وكل ما أذكره هو أنني صرخت في ذلك الحيوان، الذي عرّاني أمامها:

كيف بميّت أن يأكل لحم ميّت؟ هل تريدني أن آكل لحمي يا خلق الله... ودخلت في ملكوت من الغياب، بعد أن فتكت الحربة في عمودي الفقري، وتوغلت نحو دودة الظهر، فشلّت وعيي، ثم حين صحوت وحاولت النهوض، عرفت أن ساقي شُلّت أيضاً، وصرت أجرها خلفي كما أيامي...

قال مصطفى شبلي، سأكمل لك الحكاية لاحقاً، الآن دعني في عتابي لخالقي:

مرَّ على تلك الليلة أكثر من عشرين سنة. لكنها تحوّلت إلى كابوس دائم يطاردني حتى في صحوتي، لم تفارقني تلك الصورة على الإطلاق، وحين خرجت نحو عرائي الثاني في هذه الصحراء، خرجت هيفاء معي مصلوبة على شبكة عيني...

وبقي حطام رفاقي هناك.

هل كان عليّ أن أدفن زملائي؟ لم تأتني هذه الفكرة عندما كنت أبحث في غرف الحرس عن أشياء تسعف بقائي حياً، حتى إنني لم أخطط لهذا الفعل أو لمسار سأتخذه بعد قليل، وعندما حملت كيسي وشاهدت شيبان في نزعه الأخير، لم أكن أنوي الخروج من تلك الفتحة في الجدار، كان بإمكاني الخروج من الباب المفضي إلى الباحة، لكنني وجدتها متاحةً أمامي، شدّني إليها شلاّل الضوء والدخان، كحبل من الجاذبية شدّني إلى الخارج، فوجدت نفسي في العراء الكامل.

سحابة من دخان في الأفق توحي بفلول ما. وفي المدى المتاح أمامي حطام آليات، وعلى أسلاك السور تتدلّى أشلاء آدمية وبقايا أمتعة. وهج سماوي في الأفق، أو أنني هكذا رأيت...

لكأن ما حدث تمّ في غيابي، وصحوت على هذا الخراب الهائل والموت... وعندما دخلت في الضوء ومشيت، كنت لا أدري إلى أين، لكأني عثرت على فرصة للهروب.

هكذا، كأن كل شيء تم بغفلة منّي، حتى تلك المسافة التي قطعتها بدت مستحيلة على كائن أعرج مثلي، النباح وحده كان يعيد إليّ بوصلة وعيي وقدرتي على التحليل... وينبهني لهشاشتي...

صرت أمشي، كأني أمشي في منام... أمامي تترامى الصحراء.

ثم التفت ورائي، فبان السجن الصحراوي جاثماً مثل كائن أسطوري يلفظ أنفاسه، للمرة الأولى أراه بهذا الوضوح، تتصاعد منه سحابات من بقايا دخان، مصحوبة بصوت انهيارات وتصدّع... وأنين لم أتبيّن مصدره في البدء.

صرت أمشي قليلاً وعلى مهل وأقف، لأتلفت خلفي، لا أدري لماذا أقف وأتلفت خلفي لم يبق هناك من أحد أخافه، والنباح الذي بدا لي شرساً، صار كسولاً متقطعاً موحياً بالفشل والانكسار...

وكنت متيقناً أن أحداً لم ينجُ، ونجاتي أعجوبة، بقيت لوقتٍ طويل متشككاً فيها، أتفقد جسدي، أتحسّسه، وأختلق كلاماً. أحدث نفسي كي أسمع صوتي لأبرهن لها أني موجود، رغم كل ذلك لم أتأكد، وظننت أنني جُننت، ولكني أعرف أن المجنون لا يعرف أنه مجنون، أعرف هذا، فكيف أبرهنه لعقلي؟

إذاً، وقوفي وتلفتي إلى حيث كنت لم يكن نتيجة الخوف من افتضاح أمري أو أمر هروبي، فأنا لم أهرب، للمرة الأولى منذ سنين، كنت حراً أكثر مما ينبغي، حراً ووحيداً أكثر مما ينبغي، ولكن خياراتي شبه معدومة، أو عدمية.

كنت حراً بين خيارين، أن أبقى ميتاً أو أمشي ميتاً. لا ثالث لهما، وليس من أحد خيّرني بين هذا أو ذاك.

بالطبع اخترت أن أمشي وأموت، وهذا من طبيعتي، فعل قمت به

بالغريزة، لا بالعقل، كان عقلي معطلاً تقريباً، حتى لو امتحنته ببعض الأفعال كالتذكّر مثلاً، أو التفكير... افتكرت بنوافل من الأمور عندما لوّح لي شيبان بيده، علمت لاحقاً أنه كان يودعني. لم أقترب منه، كنت أعبر فوق جثث زملائي كحيوان مصاب بالهلع، ولكن، كي أكون صادقاً، لم أبالغ عندما رأيت «الضبع»، و«الضبع» هو جلادي «المفضل» في سنوات الترويض الأولى، كان بصفعة واحدة من يمناه التي تشبه المذراة، يطرحني أرضاً ويغمى عليَّ. وعندما كان يبدأ بالتعذيب يصاب بنوبة من الهياج المصحوب بالضحك والبكاء معاً، فلا أحد يعرف إن كان يضحك أو يبكي. عندما شاهدته ممدداً كحيوان نافق على سفرة الدرج المؤدية إلى شرفة مطلة على باحة السجن، بدا لي كائناً هشّاً، فاقداً لكل طغيانه، تأملته لوقت طويل. كان مغمض العينين، الوحيد من بين الذين شاهدتهم، كان مغمض العينين، توحي ملامحه بألم اعتصره، كان يطوّق عنقه بيده اليسرى، بدا لي يتيماً لا أهل له، وكأني شعرت نحوه بشيء من الشفقة، والتسامح...

صرت أمشي قليلاً وعلى مهل. أقف. وألتفت ورائي، السجن يبتعد وأنا أبتعد، ولا أدري لماذا افتكرت بمسألة الشوق . خيط نحيل من الحزن لفّ عنقي، وآخر من الحنين شدّني إلى الوراء، فخفت وحرت في أمري، من اختلاط هذه المشاعر.

ثم بدأت أفتح نوافذ لعقلي حتى أقول: قد يكون الحنين لما كنته

أمراً طبيعياً، أمام هذا المجهول الذي أسعى إليه وحيداً، بساق واحدة، وبنصف روح، ونصف عقل ونصف جسد...

ثم قلت لنفسي، هذا تحليل خرائي، واستأنست بقدرتي على التهكم وقلت: يا صبي لم تشعر بالحنين للمكان نفسه، بل للذين ماتوا، للوجوه التي تركتها خلف الجدران، تضيئها أحزمة من أشعة الشمس المشبعة بالغبار والدخان، تنفذ، وتتساقط من الكوى، والتفسخات في السقف وفي الجدران...

وعندما صرت في مطرح، سأنحدر منه نحو الغياب، استوقفتني الرغبة مرة أخرى في إلقاء نظرة أخيرة على سجني. ثم تعجبت عندما أحسست ذلك المكان خاصتي، سجني؟؟!! فظيع هذا الأمر. استدرت كعسكري سيلقي النظرة الأخيرة على نعوش رفاقه، جررت ساقي بيدي لتأخذ مكانها المتوازي مع اليمنى، ورميت ببصري نحوه طويلاً... تأملته كالذي يودع بيت أهله، أو منزلاً أقام به سوف يفارقه إلى الأبد...

بعيداً كان يلوح لي خلف الغبار الصحراوي، تنزّ منه خيوط دخان تتشتت في الفضاء، أما الأنين الذي بقيت أسمعه، فليس سوى صدى تخزّن في رأسي ورافقني لسنوات أُخَرَ طوال...

شاهدت أمامي، كرة من العشب الصحراوي يتقاذفها هبوب الشمال، أخذني تدحرجها، تماهيت معها وتدحرج شيءٌ مني خلفها... ثم عقدت العزم على التيه وانحدرت...

أما النباح الذي كان يوحي بالمطاردة والانقضاض، فتحول إلى عواء، لكن مصدره ليس ببعيد بالمقدار الذي أصبح عليه السجن، لم يبن منه سوى برج المراقبة المائل، هذا آخر ما شاهدته منه، عندما امتدت الصحراء أمامي بجلالها العدمي.

كان النباح قريباً من المحيط الذي أنا فيه، كنت أخاف هذا النوع من الكلاب أكثر من أي كائن آخر. وربما اعتراضي على واحدة من محاولات الهروب التي دُبرت مرة، ناتج عن خوفي من شراسة هذه الكائنات التي رأيتها في سني عمري الأولى، تنهش جسد أخي في نهار صحراوي كالذي أنا فيه... عندما جرّوه إلى قفص أعدّ خصيصاً للاحتفال «بيوم النصر».

بعد حين وشوط قطعته في المسافة، صار النباح أقرب إلى الرجاء... نباح تودّدي، إذا صح هذا الوصف، لكأن هذا الكائن مصاب، أو يراوغ لينقض عليَّ، هذه الترجيحات جعلتني أفكر بسبل للنجاة منه،

وليس أمامي سوى هذه الصحراء. قدمي اليسرى لا تسعفني. وسلاحي هذه العارضة التي التقطتها من باب الحرس.

حذراً تابعت سيري، أجر قدمي خلفي كغصن يابس. حملي يضاعف من عرجي، وعقلي بدأ يتحول إلى عبء عندما يعجز عن اجتراح الحلول، وهل من حلول؟

أمشي حذراً، والصوت دائماً على المسافة نفسها لم يبتعد، لم يقترب، بل كان يوحي شيئاً فشيئاً بالاستجداء والخضوع. نباح يشبه العواء، عواء جريح، بدأ الأمر مفزعاً في البداية، ثم حَفَّزَ فضولي على معرفة هذا الكائن، كلب أم ذئب، أم هو ذلك الوغد أحد السجانين الذي كان يهيّج الكلاب بنباحه، ويدخل في حالة كلب مسعور...

على كل حال، كنت غير مبالٍ كثيراً، بما سأصير عليه. لم تتكوّن عندي خطة واضحة، ولم أضع هدفاً أكيداً أمامي، إذ إني كنت شبه خاوٍ من أحاسيسي، وإن كنت أفطن إلى أشياء وحوادث تحمل على الحسرات، وندوبي تذكّرني بألمها، فهناك شيء عميق في نسغي أتلف، قد يكون الرغبة في الحياة التي شحذت بها روحي حين شعرت بالذعر، فالنباح المسعور، هو تهديد صريح لهشاشتي، هو تنبيه لخوفي من الألم، ولذاكرتي التي حفظت صورة أخي، داخل قفص تنهشه الكلاب المسعورة... صورة لا يمحوها إلا الموت... وقلت:

... الإنسان إنسانان، إنس للألفة وإنس للوحشة، وتراني ألفت هذا المسار في وحشة متاهتي، خارجاً من السجن الصحراوي بملء

إرادتي، لم يبق هناك من سجين ولا من سجّان... أستطيع أن أكون الاثنين في هذا العالم، الآن، رغم وحدتي، وأنست وحشتي وشطحاتي، وتابعت عرجي في الصحراء، وشعرت شعوراً خاطفاً بشيء من الاعتزاز برجاحة عقلي في ميزان الصحراء...

هي نعمة التيه. هكذا قلت. وكنت أضحك في سرّي على حالي، على اختلاط مشاعري وتناقضها.

أمامي، أو بالقرب مني، كنت أشاهد أحياناً خرقاً ممزقة على حافة البلاء. قسم منها مطمور في الرمل. قربة كالتي أحملها نخرها الوقت، ينفخ فيها الهواء، فيخرج من فوهة عنقها صفير رخيم، كناي الرعاة، يبدو لي أحياناً فحيحاً فيجفل قلبي... بقايا عظام لم أقدّر إن كانت تخص إنساناً أو حيواناً، فهي أيضاً على حافة التحول إلى رميم...

خصلات شعر متشابكة مع شوك وعشب يابس، حولها تقاذف الهواء إلى كرة يتسلّى بها الهبوب، وتلحظها عين الله بحياد.

أشياء تترك في نفسي أو تزيد منسوب الوحشة والريب، وتزيد ثقلاً على حملي... تتخلّف ورائي وتطمرها الرمال، ربما، لتعفوها في الهبوب المعاكس.

كنت أتجاهلها وأنساها، ويسرقني كتاب مرمي على دفتيه تقلب صفحاته أصابع كائن غير مرئي، لكأنه يبحث عن الصفحة التي سيتابع بعدها الحكاية. أقترب منها. لم أتبيّن كلاماً. قلت:

إنها ممحاة الزمان.

كنت أنظر إلى السماء، لا أرى شيئاً سوى احتمالات تلوح في العاصفة، لغيم عالٍ يشيّع عرجي.

ومن جديد أسمع فحيحاً، أتخيّل تلك الأفاعي التي تتململ في الرمل، ربما هي «القربة»، تعزف لحن العزلة.

... مر يوم كامل ورائي، مشيت مع بزوغ شمسه التي لم أتبيّنها أو أتبيّن موضعها في السماء، إلى أن لاحت باهتة خلف كثافة الغبار، في الأفق على غروب ذلك اليوم. في تلك اللحظة أدركت أني كنت أسير نحو الغرب، وشعرت بشيء من الرضى، دون العثور على بواعثه.

بدأ الليل يمحو الجهات ملتماً علي، كنت على لحظة الغسق، أرى الريح تسف من أجساد الكثبان رمالاً، وتنثرها غباراً ذهبياً على قرص المغيب، قبل أن تظهر أمامي شجرة السدر!!

يا الله...

اعترتني قشعريرة حين رأيت تلك الشجرة العملاقة في هذا المدى، في هذا الرمل، لكأن يداً غير مرئية حملتها من غابة قصية وغرستها للتو بكل جلالها الأخضر الرمادي، بكل بهائها ووحدتها، هكذا ظهرت أمامي، دفعة واحدة، إذ إني لم ألمحها من بعيد، أو أن كثافة الغبار حجبتها عنّي، أو لهوت بمشهد الكثبان التي تسفّها الريح وترمي ذرات رمالها في عين قرص الشمس الشاحب على فلوله الأخير.

حتى إني لم أقدّر، أو أفتكر باحتمال وجود شجر وسط هذه الصحراء.

وقفت كعلامة التيه، أرحت كتفي من كيسي ومائي، ثم انحنيت بخشوع أمام جلال هذه الشجرة المقدسة...

جثوت مباركاً انبثاقها من الملح والتراب.

أرخى الليل كامل سدوله... ثم دوّى الصمت، وعوت الأبدية عواءها المرير...

تمددت على ظهري، طقطقت مفاصل عظامي، شتمت هُزالي وعاهتي.. أسندت رأسي إلى جذعها.

شممت رائحة غابة بلادي.

... وهبّت عليَّ بعض الأشواق... أضاء القمر جسد كثيبٍ على مرمى عينيَّ، فعنّ على بالي الغناء... سخرت من شطحاتي، دون أن أقمعها فهي مسليتي، أو هي معين أصلب من عكازي... فغنيت، ورجحت انحرافي نحو هاوية الجنون، بعد انتهائي من موال بلدي:

إذا دهرك رماك وهد حيلك

ولا أهل لك لا خي لك

اركب جناح الليل خيلك

ولا تخاف المنايا ولا تهاب.. إلخ

هذا كلام «بزلميط»، و«بزلميط» في قاموسي الشخصي، أدنى مستوى من تافه.

ثم رندحت قليلاً من قصيدة فرحان داوود: مين أمنك ما تخون ولو كنت خوّان، ولهذه حكاية أخرى.

أظن أن ما قمت به هو نوع من عوارض الخوف، أو هو منازلة فاشلة غير متكافئة، مع خصم شديد الغموض والامتداد والصمت...

هو الصحراء.

وكنت، أو بالأصح، صرت أستأنس بتحليلاتي، لتلك النوبات والعوارض التي تنتابني... كالحنين، الشوق، التذكّر، الغناء، رغبة العيش... لعلّ شجرة السدر أرخت عليّ طمأنينة خضراء.

أيضاً هنأت نفسي على هذه الاستخدامات الوصفية، قبل أن أشعر بالجوع. تناولت من كيسي، كسرات خبز وحبات تمر، مضغت بلذة أقل من مصطنعة.. شربت من مائي، فتساقطت قطرات منه على صدري.

أنعشت يباسي، واعشوشب تراب صدري.

مع بداية الليل بدأت عاصفة الغبار بالانحسار، إلى أن بان القمر بكامل صفائه، وأضاء إناث الكثبان، ولاحت النجوم في مهرجانها الكوني... حضرتني الوحشة بكل ضراوتها، فانكمشت، وتجمعت. حاولت أن ألهو بتعداد النجوم الأكثر لمعاناً وحجماً، كما فعلت في سنوات عمري الأولى على سطح بيت أهلي، هي محاولة لتحسين شروط عزلتي، ومقاومة متواطئة مع الخوف. عشرون أو ثلاثون وأخطئ وأعيد... يتراقص لمعانها أكثر كلما زاد إصراري في التحديق، وكان يمحو من رأسي حساباتي كلها.

شهب ونيازك تفلق العتمة وتتلاشى...

هدّني التعب والتحديق، ثم أخذني ملاك النوم...

عادة لا أذكر أحلامي، حتى لو حلمت، لم تكن أحلاماً ذات شأن عظيم وتستحق أن أقصها، أو فيها مقدار من الغرابة، يقلق صحوتي، فما الذي أغرب مما كنته ومما صرت عليه، لكني رأيت أني مصاب بالعماء، ويقودني كلب في مدينة بيروت، تحديداً في ساحة البرج، يصعد بي تجاه وادي أبو جميل، يدخلني المبنى الذي كنت أسكنه، وكنت أتساءل في منامي، كيف لي أن لا أبصر وأبصر؟ وأتعجب من مشاهدتي للتفاصيل. صعد بي درج البناية، التقيت بهدى جارتي وحبيبتي، عانقتني طويلاً على سفرة الدرج، تماماً في المكان الذي تعانقنا فيه للمرة الأولى، في ليل من ليالي بيروت زمن الحرب. وعندما اكتشفت أني مصاب بالعماء، صرختْ فانقض الكلب عليها... خاولتُ أن ألجمه، لكنه جرّني بعنف فسقطت عن السفرة إلى قاع سحيق.

استيقظت مذعوراً، بطبيعة الحال، لا أدري أين أنا، كان جسدي ينتفض ونَفَسي مضطرباً. لاحت أغصان شجرة السدر فوقي وبانت زرقة الفجر وبدايات الصبح، التفتّ حولي، شعرت بأنفاس كائن حي، قريبة مني. اختلطت عليّ صحوتي بنومي... تفقدت كيسي، وعلى مهل التفت نحو مصدر النَفَس...

رأيته...

واحد من تلك الكلاب، كلاب السجن المدربة على الافتراس، كان ممدداً على بعد أمتار قليلة مني، ينظر إليّ بعينين حزينتين يغمضهما ويفتحهما ببطء وباستسلام، ليس فيهما ذلك الشرر الذي أعهده. هكذا صار ينظر إليَّ بتودد، أو لأقل نظرات تستجدي الغفران، فيها شيء من الندم، ثم أصدر صوتاً خافتاً، مؤلماً، فقلت لنفسي هذه الكلاب مخادعة، كما ذلك الجلاد اللعين، الذي خدع بعض السجناء بالهروب ذات ليلة، فتح لهم باب السجن على ليل الصحراء، ثم أطلق خلفهم بعد حين، هذه الكلاب التي حوّلت أجسادهم إلى أشلاء... وللتو تذكرت بقايا هذه الأشلاء في طريقي، خصلات شعر آدمية، تتقاذفها الريح، ملابس مقطعة، خرق بالية، بقايا أطراف... وكتب سماوية كان يحملها بعض السجناء الذين أصيبوا بنوبات إيمان حادة، وصرفوا سنواتهم في حفظ الآيات، وفي الصلاة.. معظمهم كانوا ملحدين، منهم مصطفى شبلي الذي كان ينهال بالشتائم على كل سجين يراه يصلي، كان يقول لهم، «عم تضيّعوا وقتكن بالعبادة، شغلوا عقلكن يا غنم.. كيف ممكن يكون مؤمن بنفس الإله الضحية والجلاد؟ هذا «الضبع» (الذي هو جلادي)، مؤمن، عندما ينهال بمذراته على الرأس، يئن الهواء من الوجع، وأنت يا شيبان، بتصلي من باب الاحتياط، هذي نظرية جديدة يا حقير!! كيف ممكن نفس الإله يقبل واحد من عبيدو يدخلولو بقفاه قنينة مكسورة؟ وآعد يتفرج على صريخو...».

كانت تصيب مصطفى شبلي نوبات هستيرية، عندما يسمع صراخ ضحية جديدة يتمرّن بها جلاّد غرّ... يضرب رأسه بالجدار ويصرخ على الله: إن كنت موجوداً تدخل، وخلصنا من هالجحيم... ويرتجّ السجن من صراخه.

بعد مرور سنين... على مصطفى، طلب من إدارة السجن أن تزوّده بالكتب المقدسة للأديان جميعاً، بما فيها الكتب التي وضعها البشر، كملاحم الأوذيسة وجلجامش والإلياذة، وتفرغ لقراءة النصوص والتأمل. صار أقرب إلى ناسك مسنّ بلحيته وهزاله وهندامه الذي هو مجموعة من خرق بالية كان يلف بها جسده. انقطع عن الكلام إلا الضروري منه. هو أقدم سجين في السجن الصحراوي، صاروا ينادونه بالسجين المعمّر، وشيخ السجن، تخطى السبعين، وصار الوحيد الذي يسمح له بأن يتجول حيث يشاء، حتى خارج السجن، وبلال الدمشقي، ولبلال حكاية أخرى، لكنه نادراً ما ترك زاويته التي تكدست فيها الكتب... كان يشترط إعارتها بحفظها غيباً، مهما كان نوعها.

عندما شاهدت مصطفى في ذلك الصباح مكوراً، مجمّعاً على نفسه كجنين، وفي يده كتاب لم أتبيّن عنوانه، رأسه يتوسد أرضاً لزجة وعيناه تحدقان في الفراغ، لا أعرف لماذا عنّ ببالي أن أرى وجهي في مرآة.

لا مرآة في السجن سوى في غرفة آمر السجن، ذهبت لأتبيّن ملامح وجهي، كانت مشظاة ومحطمة.

رأيت عشرين وجهاً لي، ولم أر وجهي.

هذه الكلاب مخادعة، تدربت لغاية واحدة: مطاردة الهاربين.

ولكن أنا لست بهارب!! تظاهرت بالنوم، قبضت جيداً على عكازي، عارضة باب مأمور السجن، من خشب البلوط، عرفتها من رائحتها، وتحسّبت لانقضاضه المفاجئ، فعلت كما فعل الثعلب الذي تظاهر بالموت، عندما أصبح تحت سيطرة الراعي محشوراً في زاوية القن وفي فمه فرخ دجاج. كان يفتح عيناً واحدة نصف فتحة ليقرأ ردود فعل الراعي، لكن الراعي كان أكثر دهاءً منه، ربطه بحبل وجره إلى موقد النار، فانتفض الثعلب عندما شعر بخطر الاحتراق!! عاد من استماتته. لا أعرف كيف أتت على بالي هذه الحكاية، في تلك اللحظة، ورجعت ذلك إلى بوادر تحسّن في ذاكرتي البعيدة... ذاكرتي الرعوية، المهم تظاهرت بالنوم، واستعددت للدفاع عن نفسي بكل ما بقي بي من عزم. صرت أفتح عيني اليمنى نصف فتحة، وأراقبه، لكنه بقي هكذا محايداً، ممدداً، مستسلماً، ينظر إلي بعينين تطلبان الود، والرأفة والسماح، هكذا كنت أرى، أو في حقيقة الأمر، هكذا كنت أتمنى؟

يا إلهي، هل يعقل أن يتحول الذئب إلى نعجة؟

صرت أراقبه بتمعن، وأمتحن ترجيحاتي في عينيه، وفي حركات ذيله.

هل يناور، ويتظاهر بالعجز، وبالتودد؟ أم هو عاد إلى طبعه، ويريدني صاحباً جديداً له؟؟ من منا بحاجة إلى الآخر؟ هل هي حاجتي إليه جعلتني أرجح ذلك؟ هل حاجته إلي جعلته على هذا النحو؟

وجوجلت أفكاري وتوقعاتي نحو هذا الكائن الذي، في كل أحواله، هو أقدر مني وأقوى، ويستطيع الانقضاض عليَّ في أية لحظة، ثم لو أراد أذيتي لكان غافلني في نومي، وجرّني من ساقي إلى حيث ينبغي أن يعيد بعض أشلائي. هو هكذا دُرِّب، وهذه هي وظيفته.

كلابٌ قاتلة.

كنت أراها في أقفاصها الحديدية وحوشاً كاسرة، نباحها زئير، وأراها تكشر عن مخالبها التي لو غرسها في جمجمتي لطحنها عن بكرة أبيها.

كان ذلك نوعاً متقدماً من فنون القتل، كانوا يتخلّصون من الفائض في الأرواح البشرية، بفتح باب السجن ليلاً، كان السجّانون يختبئون على السطوح، ويوحون لبعض المساجين بإمكانية الهرب، عبر نوبة التفقد الليلي، يرتدي السجان لباس السجين، ويشيع في الزنازين أن عملية هرب دُبرت بإتقان، بالتواطؤ مع الحراس الذين أبقوا الكلاب حبيسة الأقفاص، وفتحوا باب السجن...

تذكرت واحدة من تلك الليالي، كنت واحداً من بين أكثر من

مئة سجين، تجمعنا في الممرات، ثم رحنا نعبر البوابات واحدة تلو الأخرى، كلها كانت مشرّعة، بحيث لا شيء يصدر صوتاً، صريراً أو قرقعة، ينبّه إلى عملية من هذا النوع. حفاة كنا وشبه عراة، كي يخف حملنا.

تقدمنا على رؤوس الأصابع نحو البوابة الرئيسية، أضواء الكشافات في برج المراقبة تقوم بأدائها الطبيعي.

بدأت الحكاية في حدود منتصف الليل. خطوات مشبوهة تدق الممرات وتقترب من زنزانتي، ثم يدور المفتاح في القفل كسكين يفتح جرحاً في باب صدري، فتح الباب، اقترب وقع النعال من رأسي.

لا أرى شيئاً؟ لكني شممت رائحته. رائحة رجل أعرفه، رائحة قديمة...

خفق قلبي.

انهض. نهضت. ثم أضاف بصوت أجهله، لا تخف، سوف نهرب، لقد دُبّر الأمر. لم أصدق ما أسمعه، وارتج جسدي حين دنا مني مكرراً: انهض لا تفضح أمرنا، فقلت له: لا أريد الهروب.

ظننت فخاً دبّر لي ليمتحنوا رغبتي، وأن هذا الأمر هو أحد الأساليب التي يتبعونها، لمعرفة ما يدور في رؤوسنا من أفكار. لكن الصوت بدا أليفاً ورحيماً وعلى قدر من الرجاء، يلح عليَّ كي أتبعه، ففعلت.

أصبحت أفكاري مشوشة، وتعطلت قدرتي على التوقع. تبعته

فوجدت نفسي في طابور بشري، تتلاطم أجسادنا في عتمة حالكة في ممر طويل، كان يبقى مضاءً في العادة. وعندما وصلت إلى الباب الرئيسي تنشقت هواء الليل، هواء الصحراء جافاً بارداً دخل رئتي، خفيفاً مر على جروحي، فشعرت بخدر جميل. وبانت السماء على قدر من الصفاء يذكرني بليل بلادي البعيدة، يوم كنت أتمدد على ظهري فوق سطح دار أهلي وأحاول أن أحصي النجوم.

بانت السماء على هذا القدر الهائل من الصفاء، وبانت الصحراء تحت عباءة الليل، ضوء الكشافات يزيحها ثم يرخيها. صار المساجين يفرّون واحداً تلو الآخر، يراوغون الضوء، صمت مطبق تجرحه أنفاسهم وهسيس أقدامهم على الرمل، كان الضوء يفضح أجسادهم الناحلة، الزاحفة أحياناً ككائنات صحراوية منقرضة. صاروا يبتعدون في الليل، وبقيت واقفاً كجسد شد بحبل من طرفين متعاكسين بقوة متعادلة. كانت رغبتي في الفرار واللحاق بهم، توازي رغبتي في العودة إلى زنزانتي والاختباء والنوم، والانفصال عن وعيي.

فجأة، لا أدري من أين جاءت تلك اليد التي جرتني من ساقي في الممر الطويل الذي أضيء دفعة واحدة. صار رأسي يرتطم بالجدران. ثم سمعت أزيز الرصاص ونباح الكلاب، واستغاثات مزقت صمت ذلك اللّيل، ودخلت عميقاً في رأسي، واستقرّت على شكل أنين.

... وطالت غيبوبتي...

مرةً أخرى دخلت في غيبوبة مماثلة.

كان ذلك في بدايات مراحل التحقق من هويتي.

مصدري؟

عملي؟

أفكاري؟

آرائي؟

ونشاطي... لكم تضحكني كلمة نشاطي!!

سألني المحقق، وذاك المحقق كان من النحول بمقدار لا يليق بمهنته، وسحنته لا تدل على مهمته. كان ناحلاً وشاحباً، عيناه غائرتان، وحزينتان، وتبدو يداه مشلولتين تتأرجحان، حين كان يمشي، أكثر مما ينبغي، ورأسه يلوح فوق رقبة طويلة، بارزة فيها الأوردة المزرقة، ودائماً سيجارته مطفأة بين شفتيه.

سألني عن مهنتي، فقلت له لا مهنة لي، فقال: يعني عطلجي، متسكع. قلت له: نعم أتسكع في القصيدة. فأطلق ضحكة حائرة بين النباح والضحك، ثم ازرق وجهه، ودنا مني صامتاً، لم أقدّر ماذا يريد، توقعت وقدّرت أنه يحتقر الشعراء، أو أن الكلام الذي قلته جعله يستخدم مقادير

أخرى من ذكائه لتحليل شخصيتي. دنا أكثر ثم بدأ ينبح في وجهي، صرت أتراجع. يتقدم وينبح. أتراجع ويتقدم وينبح. طلب مني أن أنبح مثله. ارتمى على يديه مقلداً شكل الكلب، رفع ساقه، سحب عضوه، وبال... ظننته جنّ. فامتزج خوفي بنوبة من الضحك... اهتاج ولوّح بيده الطويلة وصفعني، ثم أطلق عواءً طويلاً. فجاوبته في أنحاء السجن أصوات بشرية راحت تنبح بدورها، حتى كلاب الحراسة أخذت مطرحاً لها في هذا المهرجان. وتحول السجن بحراسه وسجانيه، بجلاديه وضحاياه، إلى طابور هائل ينبح تارة، وتارة يعوي.

في حالة هستيرية مرعبة، تقدم المحققُ الطابور، آخذاً دور الكلب في حالة هياجه المسعور، تبعه مئات من المساجين والسجانين. الكل يمشي على أطرافه الاربعة، الرؤوس نحو السماء فاغرة الأفواه، خرجوا جميعاً ودبوا في الصحراء... وغابت معهم أصواتهم...

.. وكان غيابٌ آخر من غياباتي.

عندما صحوت وجدت نفسي غارقاً في بركة من دم. تقدم مني، عندما شاهدته وتحقّقت أنّه هو المحقّق صرت أنبح تلقائياً، وأتمرغ عند قدميه. وسمعت صوت مصطفى شبلي، في واحدة من نوباته، يصرخ وحيداً، بعيداً... معاتباً خالقه:

ماذا تريد، أيها الرب، لماذا تخليت عن إنسان لا حيلة له وحيداً عارياً في هذا الخلاء، وتحت رحمة هذا الوحش الذي خلقته بنفسك، يفسّخ جلد ظهري بسياطه؟ لماذا...؟

هل تمتحن إيماني بك أيها الرب؟

هل تمتحن صبري، وقدرتي على احتمال الألم والوجع؟

فإن كنت مؤمناً أو ملحداً، فماذا ينقص أو يضيف هذا على سر وجودك؟

الهواء يستغيث من سوط هذا الحيوان الذي تراه يجلد عري ظهري، ألا تسمع ارتطامه الذي يفسّخ حتى روحي الغائرة؟

ما بك؟

كنت تشاهد وأنت الذي لا تغفل لك عين ولا تنام، حطام تلك السيدة مرمية تحت النافذة التي تطل على سمائك والنجوم. ألا تراها، وترى ذلك الوغد يهتكها؟؟

ألا تراها وتراني؟

ألا رأيت كلاب الحرس تجرّ أشلاءً آدمية، على أديم هذه الأرض الفانية والباقي أنت؟

أليس بالإمكان أيها الرب أن تفني الأرض، وتبقى أنت بعنف أقل؟

بدم أقل؟

بتعذيب أقل؟

هل تسمعني؟

هل تسمعني.. يا الله..؟؟

فصرخت في انفعال جنوني، أسمعك أسمعك يا كافر ماذا تريد؟

فصرخ بي بدوره وبدرجة صوت أعلى، أكثر ضنكاً وحزماً وغضباً:

لا أسألك أنت يا خرى، سكر بوزك، أسأل الله، يا الله... وراح يبكي... يا الله... يا... ه..ه..ه..

لا صوت يأتي في مثل تلك الليالي، سوى الأنين الذي يرشح من الجدران، أو يأتي من البعيد خلفها، عندما تنتهي الكلاب من مهمتها. والذي يبقى بقايا أشلاء آدمية، وبقايا استغاثات تئن تبتلعها الصحراء... ويبقى صوت مصطفى شبلي مدوياً لوقت، معاتباً خالقه أكثر من عتابه لجلاده.

أنت خالق الاثنين... تدبّر. كان يقول. لا شيء كان يُسكت مصطفى شبلي، سوى الحقنة التي استُحدثت بدل الجَلْد، إلى أن أصيب لاحقاً بنوبة من الصمت... والتأمّل.

لكأنه اشتم رائحة أفكاري، تُرى هل يستطيع هذا اللعين اشتمام الأفكار، كما الأجساد؟ هكذا قدّرت وأنا أحدّق فيه مستعيداً تفاصيل تلك الليلة، التي تفسخت من الصراخ، ومن هذيانات مصطفى شبلي، وختمها رئيس السجن، بمحضر رفعه إلى قيادته في العاصمة، عن عملية تمرد وفرار قام بها بعض السجناء. ضمن المحضر أسماء الذين اختفت آثارهم، كانوا مئة، ما عدا اسماً واحداً هو اسمي...

انتابتني قشعريرة حين تذكرت بقايا الأشلاء التي مررت بها: فردة حذاء ومشط قدم، جمجمة تحدق في السماء، قطع ثياب ممزّقة، خصلات شعر تتقاذفها الريح...

انمحت هذه الصورة من رأسي، عندما تململ وأصدر صوتاً موجعاً!

تُرى هل هو جريح؟ سألته:

ما بك؟ موجوع؟

لا تظهر عليه علامات أعطاب أو جروح، مثلي أنا...

سألته بمزاج المعاتب الحذر:

أنت كلب آمر السجن؟؟ كلب آمر السجن أسود، وأنت لونك أغبر. هل تذكر ماذا فعلت برفاقي؟ كنت واحداً من ذلك الفصيل الذي نهش

أجسادهم؟ ما بك، هل تذكر مثلما أذكر؟ هل شاهدتَ ما شاهدتُ في هذا الخلاء، بقايا عظام بشرية، وفروات رؤوس؟ هل شممت فيها تلك الجريمة التي ارتكبتها وفصيلاً من أولئك الأوغاد؟ يا... ماذا أناديك؟ يا كلب؟

كان ينظر إليَّ، لكأنه يُصغي على شيء من النّدم، ينظر في البعيد، ثم يعاود النظر، يرفرف برموش عينيه.

ما بك؟

تريد أن تفعل بي ما فعلته في تلك الليلة؟ إيّاك.. سأهشم جمجمتك بهذا العُكاز الذي سويته من باب سيدك إذا اقتربت... فهمت... فهمت؟

لكأنه قدّر سخطي وحزني. فازداد انطواءً على نفسه. صار يتجمّع حتى أصبح رأسه قرب قدميه، ورمى «شدقه» على الرمل. ولمعت في عينيه دمعة.

تأملته بشيء من الإشفاق.

هل أنت جائع؟

رمقني بإذلال! فتحت له علبة من اللحوم، رميت له بعض ما فيها... شمّها... ونظر إليَّ. ثم شمّها ثانية. لكنه لم يأكلها. صار يوزع نظراته بيني وبين قطعة اللحم، ويرفرف برموشه.

كلها لا تخف. أنا لم أخف منك، وأنت لا تخف مني. كلها.. حقير... كلب... كلكم كلاب.

تجاهلته قليلاً، لهوت بخيوط الفجر، وببهاء شجرة السدر، وعاودت النظر إليه. لماذا لم تأكلها؟ لا تحب لحم البقر؟ تعودت على لحم البشر و«الزغاليل»... مَن عوّدك؟ كلها، كلها.

أين كنت ليلة أمس، حين بدأت السماء تمطر حمماً على رؤوسنا، وقامت القيامة؟ أين كنت حتى نجوت مثلي؟

أنا نجوت لأنني كنت أتبول، ولكن كما ترى، لم أنج تماماً. تملأ جسمي الجروح، مثل التي تملأ روحي، وأنت؟ مجروح، مثلي، الجرح الذي في نفسي، أشد فتكاً وألماً من هذا الذي في فخذي... كُلها، كُلها، كي لا تموت من الجوع.

أنت الذي كنت تذهب إلى الصيد بصحبة ذلك الوغد، لصيد الطيور؟ كان يقول عنك: يصطاد الطريدة مثلما يصطاد البشر. هو أنت، أم الكلب الأسود؟

أولئك الأوغاد حولوك إلى ذئب مفترس، أنت تريد أن تكون كلباً؟ وتريد أن تعود إلى طبيعتك. أعرف، حاجتك هي التي تذكرك بطبيعتك، مثلما تذكرت أنا طبيعتي، عندما رأيت نفسي وحيداً هناك، فمشيت، لأن الإنسان يمشي، عليه أن يمشي، حتى لو كان بساق واحدة، حتى لو كان يدري أنه يمشي في المجهول في طريق خطر لا يوصل إلا للموت، لكنه يختار ذلك. وهكذا مشيت، تركت ذلك السجن الذي حضرتك كنت واحداً من حراسه الأوفياء، تأتمر بأمر سيدك المريض وتنطلق خلف الأرواح البشرية لترضيه.

كان ينظر إلي ويرفرف برموشه، وأسكت لوقت قصير.

هل تعلم أن سيدك مريض؟

لا بأس كُل. كُلها.

كان يشمّ قطعة اللحم وينظر إليَّ، كأن كرامته تمنعه، فيتعفف عن التهام طعامه، أو أنه نادم على فقدان طبيعته!! أردت أن أوبخه قليلاً، ولكن بعد أن يأكل.

كُلها، كُلها، سأقول لك شيئاً بعد أن تأكل، حتى لا تصدأ نفسك، وضعت له في العلبة الفارغة بعض الماء، وقرّبتها منه، دفعتها بعكازي على مهل... اشرب، قد تكون عطشاناً، أكيد أنك عطشان. كل واشرب، بعد ذلك سأكمل لك حديثي.

شرب قبل أن يأكل، ونظر إلي طويلاً بعينين عاد إليهما بريق عيني كلب، يبدو أنه يشكرني على حسن معاملتي وضيافتي، ثم التهم قطعة اللحم.

هكذا اعترتني رغبة غريبة في أن أوبخه وأهينه وأشعره بالمذلّة، ولكني لم أفعل، كان مجرد شعور عابر.

وعندما حلّلت بواعث ودواعي هذه الرغبة، قلت هذه عوارض الجلاد الصغير الذي يكمن في نفس الإنسان، والذي بحاجة لتأهيل وتدريب كي يتحوّل إلى جلاد محترف. لم أستأنس كثيراً بهذا التحليل وطردت الفكرة من رأسي.

أخذت من جذع شجرة السدر في ذلك النهار موطناً لي، وكأن شعوري بالسير دون هدف خفّ، وغواية التيه شح انبعاثها، وهذا

الكلب، يبدو آنس بعض وحشتي، وزاد من همي حين افتكرت بمقاسمته طعامي وشرابي... لكني سلّمت أمري للغيب وأنا أراقب كتلة من العشب اليابس، تتدحرج في الأنواء... فتدحرج بعضٌ مني معها... تدحرج قلبي...

... وبدا ذلك النهار الآخر أحمر، كأن الله نفخ في تلك الصحراء، فاشتعلت بالقيظ والغبار. وحمتني شجرة السدر الجليلة بظلالها وبجذعها، من ذلك الجحيم الكوني.

أما ذلك الكائن فبدا طالباً للألفة والود، فغفرت قليلاً، ورويت له حكاية أخي مهدي في احتفالات يوم النصر:

لا أعرف لماذا حضرتني تلك الحادثة، ربما التشابه في المكان استدعاها بكل تفاصيلها.

في عشية من عشيات وادي الدموع «مدينة الجسر»، ومدينة الجسر بلدة صغيرة أطلقوا عليها هذا الاسم بعد بناء جسر في زمن الثورة... قال والدي: غداً صباحاً سنذهب للمشاركة بالاحتفال، أضافت أمي ستبقى هنا مع جدتك كي تعينها قليلاً وتسليها في غيابنا. اعترضت على هذا القرار. فقالت لي أمي: هذا الاحتفال ليس للصغار. تضرعت جدتي للخالق، وطلبت منه أن يحميني من الأشرار، وأبناء الحرام الذين أوقعوا بمهدي، ثم ارتشفت من قدح الشاي رشفة أراقت قسماً منها على ذقنها الموشوم. مسحته براحة يدها، شتمت الكبَر، ثم تأمّلت بخواتم الفضة في أصابعها، وبدأت نواحها في عتاب الزمن.

بكت أمي.

أطلق والدي تنهدات محمومة، طأطأ رأسه.

لم أتبين ملامح وجهه في تلك الليلة. بعد حين غفوت في حضن جدتي... أذكر هذا جيداً. وأذكر أني بكيت لبكاء أمي. وعندما سألتها عن سبب بكائها، قالت لي: «في وجع بقلبي...».

«في وجع بقلبي في حزن من سنين...

مين سرقك من حضني يا ضنى مين».

غنت جدتي.

في صباح اليوم التالي استيقظت على صراخ ومشادة بين والدي ورجال عسكريين، كان والدي لا يريد أن تذهب أمي، ولكنهم أصرّوا على أن يحضر كل فرد في العائلة، بمن فيهم العجائز والأطفال، فرحت في سرّي، لكني تهيّبت، وشعرت بالخوف، حين بدا والدي حائراً مرتبكاً يضرب كفاً بكف، وهو يردد «فاقدو الدين والضمير»..

كان ظني أننا في يوم عيد، لكن أمي جرتني على عجل بأمر من الجنود. حملت فردة حذائي بيدي، بعد أن انتعلت الأخرى، حمل والدي جدتي على ظهره، ومشينا.

كان يوماً مشابهاً للذي أنا فيه. كان أهل بلدتي يخرجون على عجل من منازلهم، كلامهم همس وقليل، وإن تجرأ ولد على سؤال ما، يُضلّله أهله بإجابة غامضة، وإن ألح على الاستفهام يُصفع، ويبكي كاتماً صوته بيده أو بيد أمه...

همهمات، أنين خافت، يأتي من الأنحاء، وأزقة البلدة امتلأت بالطوابير المتوافدة من هنا وهناك، متجهة نحو الخلاء الصحراوي...

كنت أمشي بنصف نعل، والفردة الأخرى في يدي، حتى بدوت أعرجَ كما حالي الآن، زائغاً وسط خفق النعال على الرمل، كنت أقول لأمي وألوّح به: حذائي... حذائي.. فتضغط على يدي براحتها. وهذا يعني أن أصمت. لكني تعبت من عرجي، وكررت على مسمع أمي برجاء أني لا أستطيع أن أصل، أو أمشي بفردة حذاء واحدة... فرفعت عباءتها وساوت منها شقلبان كخرج الدابة. انحنت، جلست القرفصاء، وقالت لي اصعد بعجل. وضعتني كصرة في شقلبانها، صار رأسي بموازاة رأسها، فرأيت ما رأيت...

لا أعلم من أين جاؤوا؟ غابة من الناس، لم أستطع أن أتبين آخرها. في المقدمة فصيل من الجيش، وأمام الفصيل رجال مقنّعون يجرون رجلاً عارياً، يتعثر ويقع، يتابعون جره على الرمل إلى أن يأمرهم أحد ما، لم أتبينه كنت أسمع صوته: «ارفعه يا غبي»... يتوقفون... ويحثونه على الوقوف... يقف، وتقف في عروق أمي حركة الدماء... إلى أن سقطت بي... في تلك اللحظة عرفت لماذا بكاء أمي. لماذا كانت تضغط على يدي وتأمرني بالسكوت، ويسقط من عينيها على خدي ذلك الدمع، وأنا أرجوها حملي.

قبل ذلك ما كنت أعلم من هو هذا الرجل العاري المسوق إلى نهايته المرعبة، ولا كنت أعلم لماذا تطلب أمي من الله أن يميتها للتو، أن

يعفيها من عذابها... أن يصيبها بالعماء الكامل كي لا ترى ما سنراه بعد قليل.

صرت أبحث بين الجموع عن أبي. ليس باليسير أن أعثر عليه، في مثل ذلك اليوم، لكن علامة والدي فارقة نتيجة حمله لجدتي. كان يمكنني أن أتبينه، هو لم يكن بعيداً عني، لكن الذهول الذي صرت فيه، أعماني، وحين شاهدته وأنا أتأرجح في شقلبان أمي، ناديته.. يا.. با.. رمقني من تحت حمله، بطرف عينيه، وتابع المشي... كانت جدتي على ظهره كتلة من الحطام الآدمي، فاغرة فمها، وعيناها زائغتان...

«انهض يا حيوان»، صرخ آمر الفصيل بالرجل الذي جثا على ركبتيه يرجوه، ربما كان أبي.

أمر دخل عنقي كالمسلة. سقطت أمي، جاثية على ركبتيها... وأنا في شقلبانها تحولت إلى خرقة مبللة... أسعفها من أسعفها، وتناوبت على حملي الأكتاف.

كان الناس يمشون مطأطئين رؤوسهم، وقد لفوا وجوههم بالكفافي، ليحتموا من لسعات الريح المحملة بالرمال. كانت تَخِزُ وجهي ويدي كالإبر، وأحمي وجهي مرة في عباءة أمي، ومرات في معاكسة الريح، أتطلع إلى الوراء، فأرى جموعاً لا نهاية لها، لا وجوه لها، لا عيون... مطأطأة ملثّمة.

رأيت ما رأيت.

كان يوماً هائجاً شديد السخط، ما زالت الأنواء وعواء الريح في

الجبال البركانية اللامتناهية في تدرجها نحو الشمال الشرقي، تهب خفيفاً في ذاكرتي، كمنام ممحو يخط من جديد، أو كمشهد خلف ستارة شفيفة تزاح على مهل، ليتكشف المشهد بكل وضوحه...

كانت تصدر من تلك الجبال أصوات جنائزية، نواح كوني... كأن الندابات يشيّعن هذا الحشد. مشينا نصف نهار، لم يعد يظهر شيء من بلدتنا ما عدا قمم الجبال العالية المعممة بالغمام، وعندما انتصف النهار لاح في البعيد خلف الغبار قفص هائل، بدا هو المقصد من هذا الزحف. تحلق الناس حوله تلقائياً، لكأنهم اعتادوا ذلك، نادوا على أبي أن يتقدّم مع عائلته إلى مقدمة الحشد، حيث يجلس القائد ومعاونوه. فعلنا. كنت متمسكاً بعباءة أمي زائغاً. لا أدري لماذا أرادونا في المقدمة، بالقرب من القائد.

مشينا، فسحت لنا الحشود لتعبر. كان الصمت كثيفاً، ضاغطاً، وصلنا إلى يسار القائد. أُمرنا بالتوقف. لا أذكر أن أحداً من أهلي تجرّأ ونظر في وجهه.

تقدم أحد المقنّعين وفتح باب القفص، أصدر صريراً جارحاً، زأر داخله كائن مفترس كان موثقاً بجنزير إلى وتد من أوتاد القفص. حين دُفع بالرجل العاري إلى الداخل وأقفل الباب، هاجت الكلاب وأمرت بالصمت.

فصمتت.

انتزع المقنّع قناعه الأسود ورماه في الفضاء، فتقاذفته الريح كغراب

ميت هوى من سربه. ثم انتزع قميصه ورماه، ظنه البعض ومنهم آمر الفصيل، أنه يتفنن في أداء واجبه ويقيم طقساً بهلوانياً، فأمره أن يخفف من حركاته الرعناء. أكمل التعري، خلع حذاءه، تأمل في عيني الرجل العاري، ثم أطلق العنان لقدميه في مهب الصحراء... تبعته الكلاب، وأطلقوا عليه الرصاص فارتمى على وجهه دون حراك. همهم الجمعُ ثمّ عمّ الصمت ثقيلاً... وانحنت القامات أكثر.

كان ذلك الوحش يزأر ويتمطى بجسده وبعنقه نحو الرجل العاري الذي انهار على ركبتيه، يحاول الإفلات من رباطه، فيرتج القفص، ويرتج قلبي. أمر القائد بفك الجنزير المربوط به إلى عارضة من عوارض القفص، فعلوا. فانطلق كالسهم فاتحاً شدقيه لينهش حطام مهدي... نعم إنه مهدي، لقد رأيت كيف يمزّق ذلك الكائن لحمه. أمر القائد النسوة أن يزغردن، وعندما شاهد أمي جاثية تحمل الرمل براحتيها وترمي على وجهها، وقد اختفى صوتها وبكاؤها في مكان مشتعل من صدرها، تقدم منها وصفعها، «تبكين الخائن يا قحبة»، فارتميت زائغاً على حذائه، راجياً أن لا يضرب أمي، شاخصاً نحو وجهه كفرخ طائر كسيح.

أذكر عينيه ولا أنسى...

قدّ السماء وشقها برق هائل، ثم دوى رعد صمّ الآذان، اختلطت الاستغاثات بعويل العاصفة ونباح الكلاب، أطلق الرصاص عشوائياً، لا أدري إن كانت العاصفة هي التي حملتنا إلى تلك الجبال البركانية أم الأقدار. كانت الريح تتقاذفنا. نتدافع متفرقين مبعثرين كحطام بشري.

منذ ذلك اليوم تفرق الشمل، وبدأت متاهتي... ولم نعد إطلاقاً إلى مدينة الجسر، وادي الدموع، لقد هجرت بعد سنوات قليلة حتى من الطيور، بعد تقطيع نخيلها وشجرها وتجفيف مائها.

هذه قصة أخي مهدي، وللطيور حكاية أخرى...

أتدري، أن الكلب الذي أمره قائد الفصيل أن ينقض على أخي ويجره إلى القفص، فعل كما صاحبه المقنع، عوى عواءً عجيباً ثم فرّ نحو الصحراء، أيضاً أطلقوا عليه النار فتدحرج طويلاً على الرمل، وهمد.

أتدري، على كل حال:

هذه قصة أخي مهدي، أما قصتي فتطول.

كنت أقص، فعلاً على كلبي، صار كلبي، تخيل، صرت كلبي، سجني، كلبي، قاتلي، جلادي. نملك الكائنات والأشياء حتى لو كانت معادية ومؤلمة وقاتلة.

هذه أنواع من الملكيات اللغوية!! أتخيل عندما أقول سجني، كأني بنيت سجناً لنفسي، كما البيت الذي بناه أبي ليحمينا من الصقيع. أمر مضحك أليس كذلك؟ قاتلي، كأني اخترت أحداً من فصيلتي، وسوّيته قاتلي، درّبته على قتلي، أو كأني ألّفت جلادي من لحم ودم وسوط؟؟ سوطٌ قطعته من أسلاك كهربائية، بقاطعة فتاكة.

دعك من هذه الترهات...

قلت لنفسي، وأسدلت الستارة على صورة أخي، على فلول ذلك

اليوم، على حطام جدتي فوق ظهر أبي، وقد ازدادت ذهولاً وهزالاً، كانت بالتأكيد تعلم ماذا حدث، لكنها أصيبت بالخرس، فقط كانت تلوح بيديها كغصنين يابسين، يرتجفان في الريح...

جدتي.

لكم كان يحزنني صوتك يا جدتي وأنت تغنّين «الفراقيات»

وأنا أبكي:

ع غيابك دهر

وأهجر هالبلاد

وروح

نكس بيارق حزن

ارفع رايات

الروح

سود في السطوح

وأعلن ع فراقك

مية سنة الحداد.

أعرف أني ورثت منك الغناء والفجيعة.

جدتي. «يغصابيت» اسمها القديم. وأليزابيت تخفيفاً على اللفظ العربي. استقر في بالي إليزا، أو ليزا، مثلما صاروا ينادونها بعد الشتات.

أذكر، جيداً، غناءها وأردده. أتسلى به أحياناً لأؤنس نفسي. وأذكر لكنتها العراقية المطعمة بلهجة مصدرها القديم في قرية من القرى

المتاخمة للواء إسكندرون اسمها «فند تجاك»، هذا ما تذكرته جدتي. ولولا ذلك الكتاب الذي حملته، لكانت نسيت أسماء أهلها من بين جملة ما نسيته. أذكرها. وتحضرني برأسها الصغير، بعصبتها السوداء، وبعينين خضراوين غائرتين، خفَّ بريقهما منذ وقت بعيد، وجهها التفاحيّ، بوشم خفيف على ذقنها، لا يفارق البال.. أذكرها دائماً تسند خدها براحة يدها حين يأخذها الشوق. وتغني...

في وجع بقلبي
في حزن
من سنين
مين سرقك يا عمر...

مليء بالحسرات، غناؤها. يفصح عن ألم معتق، وهو مزيج غريب من الألحان. غناء لا يشبه غناء أحد، خاص بها وحدها. وقد حفظته. ويضنيني.

كانت بنت سبع أو ثماني سنوات زمن الإبادة، كما تذكر. وتروي لي في تلك العشيات، وحين تنسى تشتم الكبر، وتغني.

كانت صغيرة، تلهو بعيداً عن بيت أهلها في الكروم، عندما بدأ الصراخ والعويل ولعلع الرصاص، وهاجت الكلاب، على بداية الغروب، اختبأت في «جب» من الشوك تحت دالية معرشة على شجر السنديان، حين شاهدت العسكر يجرّون الرجال والنساء ويطلقون عليهم الرصاص، ويحرقون البيوت... غارت عميقاً في نفسها وفي

مخبئها، وبقيت طوال الليل، في حالة من الذهول، تسمع بين حين وآخر طلقات متفرقة، وصرخات بعيدة في الأودية يتردد صداها، ونباحاً يكتمه طلق آخر...

ولشدة التعب والخوف أخذها النوم على بدايات الفجر، لتصحو عند الضحى على بلاد خالية من أهلها. بيوت يتصاعد منها دخان نهايات الحريق، وفي البعيد فلول أناس يجرّون أجسامهم في الوعر... لا أحد هناك... مشت إلى بيت أهلها، وهي لا تقدّر على الإطلاق، ما الذي صار، لم تجد أحداً في البيت.

تذكر خيطاً من الدم عند العتبة، تبعته نحو نهايته فاختفى أثره بعد حين، فتابعت تمشي كما تقول، دون هدف، جالت في القرية، وشاهدت رجالاً ونساءً مقتولين أمام بيوتهم، وفي الطرقات، الحيوانات أيضاً غارقة في بحيرات من دمها... صارت تمشي، ولا تعرف لماذا تمشي إلى أن وجدت نفسها خارج المكان، خارج القرية، في العراء، تجرها طريق مجهولة، حفرتها حوافر البغال والماشية، تجرها إلى نهاية ما لا تعرفها... وحين أصبحت على تل مرتفع، شاهدت في المنحدر جمهرة من الناس، يجرّون أنفسهم وخلفهم سحابة من غبار.. لحقت بهم، ولا تذكر كم من الأيام مشت غريبة مع غرباء لا تعرفهم.

فقط ضمّت مصيرها إلى مصيرهم.

لم تحمل جدتي معها شيئاً سوى هذه الحكاية، وإنجيل خبأته تحت فستانها، أوصتها أمها به كذكرى قديمة تتوارثها الأمهات، ويكتبن على

صفحته الأولى البيضاء، أسماء أبنائهم وبناتهم بعد الزواج، أوصتها به من زمان، وكانت قد قرأت اسمها بين الأسماء. حملته حين دخلت البيت، وخبأته تحت فستانها.

كانت تقول جدتي: إن عدد الناس كان يتناقص في الطريق، كان يموت بعض العجائز والأطفال من الجوع، أو من الحمّى، فيُدفنون على عجل على جنبات الدروب، تحت شجرة، يغطّون بالقش أو بالأغصان، وترسم حدود قبورهم بحجارة تحيط بالجثمان... لا شاهد عليها.

كان العدد يتناقص، والهمة تتناقص، كل شيء يتناقص... لولا العشب البري الذي تعرفه العجائز، ولولا بعض ثمار الشجر، شجر الميس، والزعرور البري، والماء الذي يحظون به عند سفح أو قرب دغل، لمات الجميع جوعاً وعطشاً.

وتذكر جدتي، أن تاجر قوافل مرّ بهم في ناحية من شتاتهم، وسألها عن أهلها، قالوا له، أن لا أهل لها، وقد عثروا عليها في الطريق تبكي، فعرض أن يصطحبها معه إلى بغداد... رفضت، ولا تعرف في البداية لماذا رفضت. كانت تقول إنها تعودت أولئك الناس الذين التقت بهم، وصاروا أهلاً لها في الشتات. سألته إحدى العجائز عن حاجته بها أو إليها، فقال: إنها الوحيدة التي لا أهل لها بينكم وقد تجد في بغداد حياة أفضل. تعمل في دور الأغنياء وتعيش على الأقل، وربما يظهر بعد حين، أحد من أهلها. سألت جدتي تلك العجوز التي أحست بود نحوها،

كانت تجر حفيدها بيد وبيد أخرى تثبت صرة على ظهرها، سألتها عن رأيها، فأجابتها، اتبعي إحساسك يا ابنتي، فتبعت جدتي إحساسها ورفضت.

مشوا مع القافلة يوماً على ما تذكر جدتي، أعطاهم طعاماً ونقوداً، عند مفترق طريق. وعندما افترقت القافلة، نادته العجوز، وقالت لجدتي اذهبي معه، لا تخافي، يبدو أنه من طينة طيبة، وفي كل الأحوال، قد يكون مصيرك أفضل من المصير الذي ينتظرنا، عجائز على نهاية العمر، ونسوة أرامل، نكاد نتدبر برمق أخير أمر عيشنا في هذا العالم. وهو بإمكانه حمايتك، وكأن جدتي كما روت، أحست أن تلحق به عندما افترقوا، قبل أن تناديه العجوز وتشجعها على اللحاق به. تبعت إحساسها، أو ناداها مصير ما ينتظرها على ضفاف دجلة.

ترى هل بادلوك يا جدتي بالطعام؟

لا تستطيع جدتي حسم ذلك. تذكر أنه حملها ووضعها على ظهر راحلة بين البضائع، وسارت القافلة يومين أو ثلاثة أيام، باتوا الليالي في محطات تشبه البيوت، قبل أن يصل، وتستقبله زوجته وأمه زينب. تذكر جدتي الحاجة زينب التي حممتها وسرحت شعرها. وتعثرت في لفظ اسمها، عندما سألت ابنها عبد الكريم عن اسم الفتاة، قال لها يغصابيت، يعني أليزابيت. كان عبد الكريم كتاجر يعرف التركية والأرمنية، لعلّ أرمنيته، جعلت جدتي تشعر بالأمان على ظهر راحلته وهو يحدثها بين الحين والآخر.

حرّفت واختزلت الحاجة زينب من اسم جدتي بضعة حروف، لتبقى على الأسهل إليزا، أو ليزا.

ليزا.. اسم لا يشبه طبعها.

تعوّدت هذا الاختصار أو التحريف، لكنها لم تنسَ اسمها القديم، ولا أهلها، ولا تلك الحكاية. كانت تسأل عند كل غروب، عن موعد وصول أهلها. تسأل عبد الكريم، فيجيبها العلم عند الله.

بقيت في بيته حوالى ثلاثة أشهر، تداعب ولده ابن السنتين، وتساعد الحاجّة زينب في الطهو، تذهب معها إلى السوق لشراء الخضار، وأحياناً إلى ضفاف دجلة لشراء الأسماك الطازجة. كان عبد الكريم يقول لأمه «لا تعودينها على الدلال، والمشاوير، باشر نبيعها للعزاوي».

كان قلب الحاجة زينب ينفطر، عندما يقول ابنها هذا الكلام. وتقول له: لا والله هذي بنيتي.

قبل سفره في رحلة جديدة من تجارته، باعها لعائلة من آل العزاوي، لكنها لم تبت ليلة واحدة في بيت مخدومها الجديد، هربت في عشية اليوم نفسه، عثرت عليها الحاجة زينب في فجر اليوم التالي، نائمة في حديقة البيت مغطاة بسعف من نخيل، فحملتها إلى فراشها... وأقسمت أن لا تتخلى عنها، حتى لو اضطرت لأن تذهب بها إلى آخر الدنيا. قالت هذا بوضوح، لابنها عبد الكريم الذي رضخ على مضض لرغبة والدته، وكان بين الحين والآخر، يذكرها بأن التبني في الإسلام شيء ممنوع، فتقول له: لا تتبنَّها يا أخي، أنا أتبناها، وتضيف: جارية

حلال والتبني حرام يا ابن الحلال... لا والله ما أقبل. وسُجّلت في أول إحصاء باسم ليزا عبد الكريم.

وتذكر جدتي يوم أحبت عبد الجليل الذي صار جدي، كان يعمل على القوارب في دجلة، وكانت حين تذهب لشراء السمك، يسرقها في رحلة عبر النهر، إلى أن سرقها ذات يوم في رحلة طويلة، كما تذكر وتضحك وتبين لثتها الحمراء، لتصبح ليزا عبد الجليل الغزال..

عبد الجليل اسم جدي.

اسم حملته أيضاً لسنوات قليلة في وادي الدموع قبل أن أسمّي نفسي يوسف. ويوسف أول اسم مستعار حملته، كان ذلك تمريناً لي، عشية هروبنا من وادي الدموع بعد مقتل أخي مهدي، حين استوقفنا حاجز للتفتيش وسألني عن اسمي. كنت أيضاً، مثل جدتي، ابن ثماني سنوات، وكأن الأزمان تتشابه والأحداث تتكرر، نطقت يوسف. وتوالت لاحقاً أسمائي المستعارة في بيروت.

أمضيت يومي الثاني تحت شجرة السدر، بالقرب مني كلب السجان، صار كلب السجين. حكيت له، واحداً من فصول شقائي، وكان يصغي، لا أعرف إن كان يصغي إلي، أم إنني كنت بحاجة لأن أحكي، أن أستعيد من الذاكرة ما يبدو أشد قسوة كي يخف حملي وتخف مصيبتي، ثم ما الضرر إن حكيت لهذا الكائن بعض مصائبي.

كنت أشعر بأوجاع معتقة في داخلي، عندما أنظر إليه وأحكي، ويتأملني، ثم ينظر في البعيد، لكأنه يشاركني وجعي.

قد يكون نوعاً من التدبير، إن أمضيت ذلك اليوم العاصف تحت شجرة السدر، إذ إني فكرت عندما مالت الشمس نحو الغروب، أن السعي في المساء أهون وأخف وطأة، وإن خبأت عباءة الليل مفاجآت تبقى أكثر رحمة من سخط الشمس، عندما تسقط عمودياً كسيخ من النار على الرأس، ويتحول الرمل إلى طحين من جمر تحت الأقدام.

وقد يظن المرء في ما يظن، وفي لحظات اليأس الكبرى، أنه استسلم لأي مشيئة أتت، ولكنه بعد خطوات في المتاهة التي أغوته، تعصف في نفسه رغبات غامضة في تصويب المسار والتدبير. وغريزة البقاء كما

يسمّونها تصبح أكبر من أي ثمن، أو اشتهاءً للموت في لحظات التخلي والانسحاق والإذلال.

لطالما اشتهيت الموت في السجن، وتمنيت أن يقتلني ذلك الوغد، لكنه لم يفعل. فكان يضحك بمزاج هستيري ويقول لي، «أنا شو بشتغل إذا قتلتك يا حيوان؟؟» كان يصاب بنوبة من الهذيان فيضرب كل شيء يراه أمامه من بشر وجماد. وفي لحظات صعوده ذروة الجنون، يضرب رأسه في الحائط، ويخور كعجل ذبيح يركض في الممرات يضرب الأبواب بنعله، صارخاً: سأقتلكم جميعاً يا ولاد القحاب، فد يوم أذبحكم وأرمي جثثكم للكلاب يا أوغاد.

لكنه لم يقتل، كان يستأنس بتعذيبي على مهل قبل أن تشتعل فيه ثورة جنونه.

السجان هناك. هو ايضاً سجين من نوع آخر!!

في واحدة من المرات، جاءني وكان يحمل تفاحة يرميها في الهواء ويلتقطها بانتظام. فتح باب الزنزانة، وأمرني أن أتبعه، تبعته. ولا أدري كما العادة إلى أين يأخذني، ليؤنس روحه كما كان يقول.

تبعته في الممر الطويل، على الجهتين زنازين الدرجة الثانية، كنت أرى من وراء قضبان كوى الأبواب وجوهاً ذابلة، تُصاب بالانهدال وبارتفاع منسوب اليأس، عندما يتحرك مفتاح في قفل ويصرخ السجّان.

كان صوت عامر الدليمي يأتي من نهاية الممر. يؤدي وصلة من

وصلاته الغنائية. لقد أصيب بهوس الغناء، قضى معظم سنواته يغني، وكان لا يكف عن الغناء، إلا في حالات النوم، أو عندما ينهال عليه السجّان بالسوط. صار عامر الدليمي نوعاً من أنواع التعذيب المستحدث، فإذا أرادوا أن يؤرقوا سجيناً يدخلونه زنزانة الدُليمي الذي للتو يبدأ وصلته، كان صوته حاداً كوخزة الإبر، وشنيعاً، يعرّض من يسمعه عن قرب لحالة من الانهيار العصبي، حيث تبدأ ردة الفعل الأولى بالضحك من طريقة غنائه، ثم يتحول الضحك إلى رجاء كي يكف عن الغناء، أو يقوم باستراحة ولو لثوان، بالطبع كانت تنتهي الوصلة بمأساة. كان يتعرض للضرب بعنف، أو يصاب المستمع بحالة من الإغماء.

في حالات سأم آمر السجن، كان يأمر بقيام حفلة للدليمي في الباحة، يعتلي مسرحاً مرتجلاً، من صناديق ذخيرة فارغة. يجلس آمر السجن على شرفته وأمامه تزكة العرق. ثم تبدأ وصلة الدليمي بعد تقديم من أحد السجناء، يصفه بالمطرب العظيم، وبالصوت الشجي... ويصعد المنصة وتبدأ المأساة لساعات طوال، كان آمر السجن يترنح من الضحك، يغيب ويعود، ويطلق من مسدسه عيارات بالقرب من أقدام الدليمي، يظنها تحية، فينحني، ويتابع... إلى أن يُحمل بالقوة من على المنصة ويزج في زنزانته.

كان هذا نوعاً من التعذيب الجماعي الذي يحمل البعض على أن يضرب رأسه بيديه أو برأس جاره، وهو بمثابة درجة مخففة: الدرجة الثانية من درجات الترويض في العراء، كما يسميها آمر السجن، أما

الدرجة الأولى من هذا الصنف، فكانت تتم خارج السور، في أقفاص معدنية ذات سقوف واطئة، لا فتحات فيها، تشبه خزانات المياه. كان مصطفى شبلي يسمّي هذا النوع من الاحتراق بدرجات السعير. كان السجين يوضع وقت الظهيرة في عزّ الصيف لمدة ساعتين. وكل من دخل هذه الزنازين المعدنية لم يخرج إلا محمولاً إلى مقبرة الصحراء، أو إلى غيبة قد يصحو منها أو لا يصحو، وإن بقي على قيد الحياة يبقى فاقداً ذاكرته.

المهم تبعت جلادي اللعين، سألني: «ع بالك وصلة من الدليمي»، فقلت له إذا أردت أن تخيرني، ردني إلى حيث جئت بي، نظر إليَّ مستخفاً بطلبي، فتح الباب الرئيسي للسجن، وتابع نحو باب السور، تجمدت دمائي في عروقي. عندما شاهدت تلك الأجسام الجحيمية السوداء، تتصاعد من سقوفها أبخرة الاحتراق.. ما رأيك؟ طالع عبالك تتحمر مثل فروج الشواية؟ ثم خيّرني بين أمرين، أو بالأحرى اشترط عليَّ أن ألتقط التفاحة بفمي مباشرة بعد أن يرميها في الهواء، فإذا أفلحت، أكلت التفاحة، وإذا أخفقت أكلت نصيبي ساعة على الأقل داخل هذا الفرن. فقلت له: هل تظن أني أملك شدق حوت، افعل ما تريد، أنا لا أستطيع أن ألتقط حتى حبة عنب في فمي، لم أتمرن على هذه البهلوانيات. فقال لي إذا لم تفعل فسأدخلك، ولن أخرجك إلا مشوياً أيها الحقير، وهجم بكل سخطه نحوي.

علت جلبة عند الباب الرئيسي الذي تركه مشرعاً، اختلط هياج

الكلاب داخل أقفاصها، بدويّ بعض العيارات النارية وصراخ الحرس، رمى بالتفاحة وهرع نحو الباب...

وحش دخل باب السجن وقتلوه... ونجوت.

مالت الشمس نحو الغروب، وهدأت العاصفة قليلاً، ثانية اجتاحتني نوبة من الحنين. نظرت نحو كلبي، وأحببت أن أسميه، أن أجد له اسماً يتناسب وحالتينا، أنا، وهو. هو لم يعد الكلب الذي كان عضواً في فصيل كلاب السجن، وهو بالتحديد كان يبقى خارج الأقفاص، كحرس متقدم، كان يصطحبه آمر السجن في رحلات الصيد. كان ينقض بأوامره، على عكس كلاب الأقفاص التي ما إن تفتح لها الأبواب، حتى تلتهم أي كائن يمر في طريقها. على كل حال، هو بالتأكيد كان بحاجة لأنس وشمّ رائحتي، بحاجة لإنسان حي، لا لإنسان ميت، وإلا لكان بقي في السجن ينهش من أجساد رفاقي الذين قضوا في ذلك اليوم الجحيمي.

ترى هل هذا تحليل منطقي؟

كنت أحار وأسأل نفسي، وأسأله، وأكرر أسئلتي، كما يفعل المحقق عادة.

أين كنت؟ وكيف نجوت؟ ولماذا لحقت بي؟ لماذا لم تساعد آمر السجن؟

هل رأيت سيدك، كيف كان يتدلى بنصفه العلوي من بين قضبان

النافذة، يبدو أنه كان يحاول الفرار حين التهم الحريق حجرته. لماذا لم تنقذه؟ كنت خارج السجن، بالتأكيد كنت تجوب في المحيط تشتم رائحة ما... لم يتمكن سيدك من النجاة لضخامة كرشه، إذ إنه علق من وسطه بين قضبان النافذة.

كان رأسه يتدلى كذبيحة. لم أتجرأ على أن أنظر في وجهه.

كنت أصرخ في الممرات، هل من أحد هناك. حتى الزنازين السفلية قمت بجولة عليها، كانت شلالات الضوء تخترق الفتحات ككشافات كونية في عملية مسح لمسرح الجريمة.

هل من أحد حي؟؟ كان صوتي يرتطم بالجدران ويرتدّ لزجاً، هل وحدي بقيت حياً؟ هل هذا عدل يا الله، كنت أصعد الدرج المؤدّي إلى غرفته، عندما شاهدته على هذا النحو.

أين كنت أنت؟ هل تفقدت صحبتك مثلما تفقدت صحبتي؟

نظر إليَّ ولوّح بذنبه قليلاً.

على كل حال، ماذا أسمّيك؟

ماذا أسمّي هذا الكائن؟

في ذلك اليوم، بقي يدور على المسافة نفسها مني، يدور على شعاع لا يتعدى عشرة أمتار، كان يبتعد قليلاً ينبح في الخواء، نباحاً خفيفاً، بدا كتمرين للصوت، ليس أكثر من ذلك، أو نباح احترازي، ثم يعود ويتمدد، وتزوغ عيناه، تذبلان، ويطلق لسانه على مداه، من شدة القيظ.

حين أحدّثه يلتفت نحوي ويتمعن في ملامحي.

لم يقترب كثيراً مني. لكأنه أدرك أنني لم آلفه تماماً بعد، ولم أشعر بمودة عميقة نحوه. وربما كان كلامي معه امتحاناً لي، وله قبل إبرام عقد الصداقة. وكنت بيني وبين نفسي، أرغب أن لا يقترب مني، ولكن حين يبتعد ليطلق نباحه الاحترازي، كنت أرغب أيضاً أن لا يبتعد بالمقدار الذي يتعذر عليَّ رؤيته.

أخاف؟ نعم أخاف... أخاف من العدو الأكثر غموضاً؟؟

كنت ألهو بهذه الأفكار والتخمينات. رأيته يتحفز، انتصبت أذناه، وصار يحركهما كشاشة رادار، كلاقط للصوت. ثم راح يعدو بسرعة مذهلة. خفق قلبي، واجتاحتني قشعريرة الخوف. كانت الشمس على باب الغياب، والعاصفة مع بداية انحسارها، والغبار يحجب الرؤية على بعد أمتار قليلة، حيث تتحول الأجسام فيها إلى أطياف سرعان ما تختفي وتتلاشى، اختفى طيفه، وجرت خلفه أفكاري. تُرى ما الذي يشعر به؟ هل اشتم رائحة وحش؟ لا أتصور ذلك، عادة عندما تشتم الكلاب رائحة الوحوش تطلق نباحها... لم يطل غيابه، رأيته يخترق مجال الرؤية عائداً بسرعة أقل، ارتمى على المسافة نفسها فاغراً شدقه، متدلي اللسان، لاهثاً، وعيناه دائماً في عينيّ.

ما الأمر؟ سألته.

ربما أحس بوقوع طائر ميت. كثيراً في تلك العواصف، ما تموت الطيور المهاجرة، وتهوي من سمائها العالية إلى الأرض.

لا بأس.

ماذا أسميك أيها الأحمق. أتدري؟ إني أشعر بشيء من الرضى عندما أستعيد بعض سخريتي القديمة، التي كنت أظن أحياناً في سنوات السجن، أنها دخلت في حالة سبات طويل، لكنها كانت تعاودني أحياناً. لكم كانت تُسعفُني على احتمال المهانة وسحق الروح.

تعلم؟ عندما سمعت نباحك للمرة الأولى، وأنا خارج من تلك الفجوة في الجدار، حاولت أن أركض، لكن قدمي لم تسعفني. بدت لي كخرقة بالية، فشتمتها بعنف كما لو أني أشتم صديقاً خيب آمالي وخانني. ثم ضحكت على حالي، فماذا بوسعي أن أفعل؟ حتى لو كنت سليماً، وبساقين متينتين أمام عدّاء عظيم مثل أفضالك... أيها الحقير... مبسوط؟

كان ينظر إلي ويهز بدلالٍ ذيله.

هل تعلم أنك كلب جميل أيها الوغد؟ جميل يا قواد. تشبه كلب الراعي رشيد في تلة سليمان، قرية مريم. كنت أقول لمريم، دعيني أتذوق رمانك يا مريم، وأعطيك بستان رمان أبي.

شعرت بخدر يطال عقلي، ورددت بلا وعي: «أريني نهديك يا مريم، وأعطيك رماناً من حقل أبي».

هذا الكلام كان فاتحة شقائي ومتاهتي.

كان يحمرّ وجه مريم وتقول لي عيب أنت أزعر...

وكنت أرجوها...

وحضرتني مريم بكل نضارة عمرها...

سلام لمن علمني فك عروة الحرف، لأزرر قميص الحرير لأول أنثى تعرت أمامي في الحصيد، وكنا نرعى المواشي على الضحى... يا ليتني... وانتبهت أني أصبحت في حالة عاطفية فاضحة...

لا بأس... سأخبرك عن مريم لاحقاً.

وشعرت بغصة علقت في حنجرتي. وبهتت حتى الامحاء صورة مريم.

هل أنا سوي؟ سألت نفسي، هل يعقل أن أبوح بأسراري إلى كلب؟ أو أن أحدثه كما لو أني أحدث صديقاً حميماً؟؟ وما الضرر في ذلك. أنا أتذكر، ولكني أتذكر بصوت عال، وأفكر بصوت عال... ما الضرر في ذلك؟

نبح نباحاً احتجاجياً، وأشاح بنظره وأسهم بعيداً.

زعلت؟.. ليس بمهم.

ماذا أسميك؟

تريد أن تعرف اسمي؟ أي اسم تريد أن تعرف من أسمائي، أنا لا اسم لي تقريباً، منذ سنوات طوال، طوال... لم ينادني أحد بأي اسم... عبد الجليل، أم مسعود سويحان، أم يوسف، أم رشيد الراعي.

يوسف...؟ حسناً. لنقل اسمي يوسف، علماً أن ليس فيَّ من حسنه شيئاً. مرة سميت نفسي يوسفَ عندما هربت عائلتي من مدينة الجسر.

أنت كيف تراني؟ ليتك تقول لي شيئاً عن هيئتي، عن ملامحي. لقد نسيتُ ملامحي ووجهي، أيها الصديق...

الصديق؟؟

واستأنست بكلمة صديق، دعني أسميك فرند، صديق بالإنكليزية. فرند اسم معقول. فرند، سأدربك عليه، خذ هذه قطعة من الخبز. كلها، ستتعوّد اسمك الجديد.

هيا يا فرند، علينا أن نسير... اتبعني يا فرند... ها ها ها...

أظنه اسماً ممتازاً، يصلح تماماً لحالتينا... ها ها ها.

ضحكت.

تدحرجت ضحكتي على صدري وسقطت في الرمل!!

لفَّ عنقي خيط من الحنين.

الشمس على باب الغروب، وذلك السرب من الطيور الذي يبدو كسطر نحيل على قرص الشمس الأغبر، حرّك في رمادي، جمر الشوق.

لكم يشقيني هذا المشهد يا فرند؟!

ولكم يثير في قاع أعماقي التي لم يطلها السحق، حزناً لا أعرف سره أو مصدره.

لعلَّ تذكري لمريم، حرّك في نفسي شجني الخبيء.

وتلفتُّ إلى شجرة السدر، أحسست بمرارة وأنا أغادرها، اقتربت من جذعها وقبلته، شممت رائحة عطرها. منذ ثلاثين سنة لم أقبّل أحداً، ولم أضم بين ذراعي أو يضمني أحد.

كانت هدى في سنوات وادي أبو جميل في بيروت، تفعل ذلك، كنت أعتصرها وتعتصرني. وأشم بين نهديها عطراً، وأغفو خدراً من نفسها، بعد ليلة صاخبة.

غمرت على قدر ما طالت يداي جذعها، قطعت طربوناً من أغصانها الشائكة، ومشيت.

مشيت...

كنت أتلفت بين الحين والآخر نحوها، صارت تبتعد وتختفي في بدايات العتمة، أطلق فرند نباحاً، لكأنه يودع شجرة السدر الجليلة. ومشينا ليلاً كاملاً... وجهتي الغرب، صرت أفكر أن تكون دائماً وجهتي الغرب..

سمّيت نجماً في السماء سهيلاً، لا أعرف لماذا سميته!! ربما لم يكن هو.

.. ثم لاح القمر، بزغ ضوؤه من وراء الكثبان، لكأنه انزلق على صفحة الليل وارتمى في صمت السماء بدراً. التمعت بضوئه عينا فرند، كان يمشي بموازاتي، لقد اختزل من مسافة ابتعاده عني مقداراً يؤكد الثقة.

بدأ الودُّ ينعقد.

لم يعد يظهر من شجرة السدر سوى طيف شبحي جاثم في البعيد، خيط نحيل بقي يشدني إليها، قلت في عقلي:

الإقامات المؤقتة أوطان.

يا الله، لكم أطربُ حين أعثر على اللفظة التي تُترجم إحساسي، هي واحدة من خصالي القديمة.

كان عكازي يسعفني على احتمال قدمي، ويسعفني فرند على تبديد

بعض وحشتي، أو تخفيفها، وكنت قبلاً قد ظننت أني لم أعد أشعر بوحشة أو بألفة.

لم يكن حملي خفيفاً، يزداد ثقلاً، عندما تعصف في بالي أصوات الاستغاثات تحت الركام، تضطرب مشاعري، وتراودني نوبات من الخواء، وأشعر بتعب شديد، كنت أضطر لأن أقف وأجلس، أرفع ساقي بيدي، عندما تصاب بالخدر الكامل، أمسدها، يجلس فرند بالقرب مني القرفصاء، يوزع تأملاته بيني وبين القمر، ويصغي بين الحين والآخر إلى صوت يسمعه وحده.

ليتك تحمل عني بعض حملي يا فرند.

نسائم الليل باردة تسفّ رمل الكثبان، لكأنها لمسات نحات تصقل أجساداً أنثوية. على مرمى بصري، بدت لي شلعة من نساء عاريات ينمن، وتظهر منهن انزلاقات وانسيابات أنثوية، هائلة الجمال، تلتمع تحت فضة القمر، وعندما يحرك هبوب النسائم حبات الرمل، لكأن أغطية من حرير تنزاح، فيبين انزلاق الجسد من تحت الإبط نحو الخصر، ينثني ليرتفع مجدداً عند الردف وينساب مع الساق إلى نهايته.

هي نهاية أوجاعي الدفينة.

يبدو أنني ما زلت أحتفظ أيضاً بشطحاتي الرومنسية، وبخيال.

هل شاهدت البحر مرة؟ لا أظن أنك رأيت البحر، انظر في المدى خلفك، أليست هذه الكثبان أمواج بحر.

هناك بحر الرمل. فعل.. فعل.. ك. ك. ك. وأصمت.

ليتك تعلم يا فرند كم أنا غريب.

لكي يعبر المرء هذه الصحراء عليه أن يستعين باللغة. اللغة خيل يعدو بي، أو يمشي خبباً في هذا المدى.

من الذي قال:

لكي تصبح إنساناً عليك أن تقطع هذه الصحراء، ولكي تصبح نبياً عليك أن تعيش فيها، وتغفو تحت شجرة السدر...

ارتعش بدني عندما راودتني هذه الفكرة، مثلما ارتعشت عندما بانت عليّ شجرة السدر. وتذكرت أن في الجنة مكاناً اسمه سدرة المنتهى، فإلى أي منتهى يصل مَنْ حاله مثل حالي؟

أتعلم يا فرند، لقد اشتقت لشجرة السدر، ليت الشجر يمشي، لكنا مشينا ثلاثة.

تخيل:

إنسان أعرج، كلب وشجرة، يمشون في الصحراء!! هل هناك أجمل من هذه الصداقة والألفة، كلب وشجرة وإنسان؟ كلاكما بالمفرد. أنا الوحيد مضاعف، إنسان، وليس إنساً واحداً بل اثنان.

أأعجبتك هذه النظرية يا فرند؟

هذه المرة أجابني، وأطلق نباحاً احترازياً. علمت في هذه الصداقة غير المتوقعة، أن الكلب ينبح بين الفينة والأخرى نباحاً مجانياً، أسمّيه احترازياً، وأستأنس بهذا السلوك، وهذا الاستنتاج.

يا إلهي!! لكأني أصبت بدوار من النسيان. هكذا عبرت لحظة، كأني دخلت ثقباً أسود، نسيت من أنا، نسيت من أنا!! وأين أنا، أين كنت، وماذا كنت أرى أو أفكر، أو أحكي..؟ جمدت مطرحي وعاينت نفسي والجهات، وفضة القمر، وانسدال حرائر الكثبان. ثم أدركت أن هذه الحالة صارت تصيبني بعد ليلة الهروب، عندما صحوت على جسدي غارقاً في دمه.

وبدا لي كأني تعودت وضعي الجديد، هل تكفي أيام ثلاثة لتعويدي أو ترويضي؟؟

سبحانك ربي...

أمشي وليس أمامي هدف واضح تماماً، أو غاية. ولا أدري لماذا اخترت السعي غرباً لا شرقاً. الصحراء تمشي معي، لا أشعر بتبدل، أو بشيء يوحي أني قطعت مسافة أطرحها مما بقي، ولا أعلم ماذا بقي، أو كم بقي للوصول!!

توسط القمر السماء، هذا يعني أني مشيت ما يعادل نصف ليل آخر، تسليت خلاله ببعض الأفكار والرؤى والتخيلات.

عنّ لي أن أرتاح، أن أضع كيسي وعصاي جانباً. أن أفك عن قدمي المعطوبة تلك اللفائف من الخرق، وأتحسس الرمل عاري القدمين، ولكن خفت أن يأخذني النعاس. وأبتلى في صباح اليوم التالي بجسدي تحت أشعة شمس الله.

ليس في الأفق إشارات لتحول أو لتبدل. وليس من شجرة كالتي ودعت، وطبيعة الأرض لا توحي حتى اللحظة باحتمال أن يعيش أو ينبت شجر. فما كان علي إلا أن أسير، وإن خاب بعض ظني بقدرتي واحتمالي.

شربت من مائي واقتصدت.

نظرت إلى فرند كان يلوح بذيله، فاغراً شدقه، بدا لي سعيداً أكثر مما ينبغي، لا أعلم سر سعادته؟ تُرى هل لأنه التقى بصاحب له، أو لأنه عاد إلى طبيعته ككلب، طبيعته المهيّأة للوفاء، وإذا غدر مرة، فغدره كان وفاءً للذي درّبه على هذا الغدر والسلوك.

أظن أن قدراتي الفلسفية بدأت تتحسن أيضاً. فضحكت على حالي بصوت عال. فوجئ فرند، ورمقني باندهاش متعجباً من إفراطي في الضحك.

قلت له سوف تتعود على نصفي الآخر الضائع، الذي أسقيه الآن ليعود إلى الحياة، كما النبت الذي يوحي لصاحبه باليباس، ولكن بعد أن يرويه تعود نضارته.

أأعجبتك فلسفتي هذه أيها الحقير؟

نبح فراند. شاركني رأيي وتهكمي.

ومشينا.

اختزلنا مقداراً جديداً من المسافة الفاصلة بيني وبينه، صار أقرب من ساقي المعطلة، التي أقودها بدل أن تقودني، هل عرفت يا فرند أحداً يُمشّي ساقه، نظر إلي. علمت أنه اعتاد اسمه الجديد «فرند»، ولم تكن نظرته هذه نظرة استفهام عن هذا السؤال، أو المعادلة العجيبة... رجل يُمشّي قدمه؟؟

لا أدري. ولكن منسوبَ الودّ زاد مقداراً ملحوظاً.

وتمطت الصحراء...

لكأنها تتثاءب، ثم أفردت جسدها لاستقبال العدم بكلِّ مهابته.

مشيت بصمت، لا أسمع سوى وقع خطواتي وهي تهرس الرمل، ولهاث فرند.

الصمت حين تدخل الأشياء في سكينتها المطلقة، في هذا العدم المحسوس، تسمعه مدوياً. حتى حينما تتأمل النجوم تحس دورانها، أو إذا فلت من الأجرام نيزك أو شهب وذبح العتمة السماوية، تظن أنك سمعت وحيحاً أو صفيراً كونياً.

أصبت بنوع من الرهبة الجليلة، وارتعش بدني، أحس بي فرند. اختزل مقداراً آخر مما بقي من المسافة بيني وبينه. لكأنه أراد تحفيز عزيمتي، وتخفيف حملي النفسي ورهبتي.

أحسست عميقاً بثقل الرهبة في صمت هذا الليل الصحراوي المديد.

القمر مؤنس.

ولكن ما رأيت في فضة ضوئه في المدى سوى الهباء للمرة الأولى، تجسّد العدم.

تجسّد الهباء أمامي.

لا شيء يوحي على الإطلاق باحتمال وجود آخرين غيري وغير هذا الكائن الذي استعار من أنسِ ألفتي ليؤنس وحشتي، أو أني استعرت منه ما خسرت.

وقارنت بين هذا الليل وليالي السجن فاعتدل الميزان. ثقل الفراغ في كفة الصحراء، يوازي ثقل العذاب في ليلة زنزانة، عندما تتبدد الآمال والأحلام.

هي لحظات عابرة، تبدو ثقيلة، يبددها أمل ما بشيء لا تعرفه، هو شعور بالعثور على أثر، كأثر راحلة، أو على انبثاق عجائبي لشجر، أو لعبور قافلة بدو في الأفق على خط السديم، يغني حاديها...

وعنّ على بالي الغناء...

أعلم أن لصوتي رنيناً يرفع غيم الشجن في خاطري، أو كان كذلك. كانت هدى تطلب مني أن أغني لها من مواويل أهلي، وكنت أفعل وتصاب هدى بحالة الوجد.

أعلم أن لصوتي وقعاً يثير مواطن الحنين، ولكن هو أيضاً من الأشياء التي ماتت في السجن. في طيات العتمة والنسيان، أو على الأقل مات بعضها، أو خفت الرغبة في استعادتها. كنت أرندح قليلاً في سرّي، وأضحك لعامر الدليمي مطرب السجن، عندما ينزل غضبه الغنائي على مسامعنا، بأمر من آمر السجن الذي حوّل غناء عامر إلى أداة مبتكرة للتعذيب.

مرة سمعني بعض السجانين أرندح موالاً من الشوق لأمي، فجرّني

إلى سيده، وقال له، هذا الحقير يغني وصوته حلو يا سيدي. فطلب مني الأخير أن أغني له. كان مزاجه معتدلاً على شرفته، وأمامه قدحٌ من العرق، مترعٌ بالثلج... وعلى حافة الشرفة تعبق رائحة الشواء.

صبَّ لي قدحاً وقال لي اشرب.

قلت له أنا لا أشرب، قلت ذلك دون تفكير، رغم أني أحب الشراب، وإن كنت نسيته بعد طول سنين، فغضب وصاح بي:

لا تشرب يا قواد، كأسي؟ لا تشرب كأس سيدك؟ هل أنت واحد من الأوغاد المصابين بنوبات الإيمان يا كلب، تخاف عذاب الآخرة، وهل تظن أنه سيبقى منك شيء للآخرة؟ وجلجلت ضحكته وهو يردد بازدراء مقيت: لا يشرب الحرام ابن الحرام، يخاف عذاب الآخرة. ورماني بقدحه على وجهي، وأصاب روحي سهم آخر من الذل، فابتل صدري وفاحت رائحة اليانسون. ثم طلب من حرسه أن يأتوه بإبريق، عدّل فيه العرق والماء، وسكب قدحاً آخر، أوثقوا يديّ خلف ظهري، شدني من رأسي إلى الخلف كذبيحة، ووخزني بخنجره في سلسلة ظهري فصرخت، وأراق في حنجرتي كماً من العرق، جحظت عيناي، وكدت أختنق، فرد رأسي إلى موضعه بسرعة وتلّني، هزني من كتفي.

اجتاحني على مهل خدر، وكنت أعرف مفعول الخمر، وما يحدثه في النفس، لكني لا أريد أن أشرب من يد هذا الوحش، حتى لو أدى ذلك إلى إطلاق سراحي... كنت أتحاشى حتى النظر في عينيه، القادحتين بشرر، كانت تفوح منه نتانة جيفة.

سألني:

لا تشرب لأن الخمر حرام؟ ها...

لم أجبه، أردت أن أتركه في حيرة من قناعتي.

تخاف عذاب جهنم يا جبان، تريد أن تذوق عذاب جهنم؟ وصاح بالحرس المسمّر بجانبه كعمود إرسال، هات النار.

وهن عزمي، وشعرت بارتخاء في مفاصلي، وضعفت نفسي.

جاءه الشرير الآخر بسيخ من على المشوى الذي يشوي عليه زغاليله اليومية تقريباً، كان مهووساً بأكل الحمام بمقدار هوسه بتعذيب الأرواح البشرية.

هممت لأقول له اعفني من هذا وأشاركك شرابك، لكني خفت أن يضاعف هذا الكلام من سخطه.

يا ليتني قلت.

خذ السيخ وغلّه في الجمر، طلب من الحرس. وارتشف القدح كاملاً، وسكب الآخر، وقضم من جاط الخضار خيارة شديدة الاخضرار، بعد أن غمسها بصحن وزع فيه الملح وأنواع البهارات. جاءه الشواء بزغلول احمرّ على لظى الجمر، انهدلت شفته السفلى لمنظره الشهي. قال:

يا سلام على هذه الكائنات، سبحان من سوّاك حماماً مشوياً. وفسخه بتأنّ فتصاعد خيط البخار، احترقت أصابعه قليلاً، نفخها ببوق فمه، ونفضها قليلاً في الهواء... مهمهماً، ثم التهم زاوية من الفخذ بعد

أن نثر عليها بعض الملح والبهار، وصاح، صاح طرباً نشوانَ لشهوته العارمة. الله... الله... تلمظ، ثم رشف جرعة من القدح، وأطلق ضحكته المجلجلة... يا سلام...

عداني...

شعرت بأنه عداني. اشتهيت أن أغمس خيارة في الملح، وأتبعها بجرعة من العرق.

على عجل انقضت هذه الرغبة، واعترتني الرجفة، عندما جاءه الآخر بسيخ يتوهج احمراره أشد من الجمر. أخذه بتأنٍّ طقوسي من مقبضه، وصار يمرره أمام وجهي، وشعرت بحرارته تنفذ إلى عقلي، إلى مسامّ روحي حين حزّه على جبيني، بغفلة.

آخ... آ...

دوت صرختي يومذاك في أنحاء الصحراء، وارتج السجن، صحوت بعد قليل مبتلاً بالماء، وما زلت على الكرسي قبالته.

ها.. نخع الهاء من حنجرته، وسأل: ذقت عذاب النار؟ يا كافر، يا شارب الخمر.

ماذا تفضل، قدحاً أم سيخاً آخر؟

قلت له بانسحاق تام: كما تشاء، وسكب لي قدحاً. وقال لي اشرب نخب السجن الصحراوي وسيده الأعلى، وضرب كأسه بكأسي. كانت روحي على منزلق الفراق، وألم جبهتي يفج رأسي إلى فلقتين تغليان.

اشرب، سوف تنسى الوجع في الكأس الثالثة، وفي الرابعة سوف تغني، ها؟؟

شربت القدح دفعة واحدة، وكأني أردت به إطفاءَ إحساسي بالحياة.

سكب لي قدحاً آخر، أيضاً سكبته في جوفي دفعة واحدة، ثم بدأ التنميل يسري من أصابع قدمي صعوداً، والخدر يسري بدوره نحو خلايا عقلي، وشعرت بحاجة للبكاء، لم تكن نتيجة للألم الذي يشق جبهتي ويفلعها، بل كانت حالة كتلك التي كانت تنتابني في حانات بيروت، سنوات الحرب، مع كل كأس في تلك الليالي، كان يعلو عندي مزاج الحزن، الذي تؤججه أكثر لحظات الفرح، أو أي لقاء، كان يؤسس للتو لنهايته، كنت أرى دائماً نهايات الأشياء، مهما بدت ممتلئة بالسعادة ومستقرة ودائمة.

لطالما كانت هدى تنتقدني هدى على هذا السلوك، وكنت أقول لها، هذا أمر خارج عن إرادتي. حين أشرب، تتفتق في أعماقي نوازع تحرض على البكاء، وأستعيد صوراً أكثر مرارة من عذابات الفراق، وأتخيل عالماً أكثر جحوداً وتخلياً.. قد تكون هذه الأمور من بواعث حزني، ولكن في حقيقة أمري، كنت لا أعرف، كنت أعلل، وأحلل، وأخمّن وأقدّر. وكنت أقول لها هذا من صميم وراثتي. وفي لحظات عجزي عن التحليل، كنت أقول لها هل تريدينني أن أكون ممتلئاً بالسعادة، حين أفتكر بصورة أخي مهدي، يجر إلى شدقي حيوان مفترس على مرأى من كل الناس؟ أو أفرح باحتراق بلدتي، وتجفيف

مائها، وشتات أهلها؟ هذا أنا، إذا لم أعجبك، إذا كنت عبئاً عليك، تستطيعين تخفيف حملك، أنا في الكأس الثالثة، أصاب بالحزن. فتسكب لي الكأس الرابعة، يطفئها، ويبرّد حمّاها، عناق طويل وليلة عالية من الجنس...

من أي جنسٍ أنتَ؟

سألني وأضاف، تتحداني في الشراب يا كلب، سوّيت نفسك مؤمناً عفيفاً. يا نعلي، نعل... وصاح وسعل...

هات يا ونش، والونش هو نفسه العمود، ذلك البني آدم المسمّر بجانبه على مدار الساعة، بمثابة ظله. ظلّ ممدد بحرارة الصحراء، كان يفوقه بالطول ضعفاً، لكن بالبدانة أقل منه بثلاثة أضعاف.

هات... وجاءه بإبريق آخر، عدّل فيه دوزان العرق.

غبي، هو بالتأكيد لم يدر ما جال في نفسي، ولم يلاحظ في ملامحي سوى آثار سيخ النار الذي فلق جبهتي، وخدري جعلني مستسلماً لكل ما يجول في نفسه، بدوت مهيّأً للتحدي والمنازلة، إلى أن يسقط أحدنا مخموراً على قفاه..

لا أدري من أين جاءتني تلك الجسارة والقدرة على التوازن... خاوٍ، وقد دمّر روحي وجع وإن تبدد من خدر الشراب، بقي ينز في عظامي. شعرت بنشوة المنازلة. ففعلت.

مددت باعي، بيد مترددة، لألتقط حبة من الفجل، تميل بشوشتها على حافة جاط الخضرة، تعجب. تعجب لجرأتي، وضحك قائلاً:

كُلْ، هات له فرخ حمام، وتابع أغنيته:

يا حمام يا مروح بلدك متهني..

خليني أنوّح وأنت تغني...

آه يا حمام.. يا حمام

يا مروح...

لا بأس بصوته. قلت: ربما السكر جعل صوته محتملاً، ولكن لشهادة الحق فقط، كان صوته معقولاً، وطروباً.. وإلاّ لم يبق في بالي. لكن ما حيّرني: كيف لكائن يحب الغناء، والخمر والتلذذ بالأكل، إلى حد الإغواء والهوس، أن يكون على هذا القدر من التناقض.

كيف له أن يحزّ بسيخ النار جبهتي، ويتلذذ عندما يهوي الجلاد على ظهرٍ عارٍ، بسوط من أسلاك الكهرباء التي تترك فلقاً ثم تظهر منه سلسلة الظهر، ويترنح الجسد هامداً على أرض لزجة.

هذا أمر بحاجة لتحليل ربّاني، قلت، وحسمت أمر منازلتي، تحوّل خدري إلى سلطة، ووجعي إلى قوة دفع وحقد.

اسكب.

قلت له.

ذهل من طلبي، وقال: يا وغد أنا سيدك، أنا... أنا. أنت ملكي، شيء من حاجاتي، كخرقة أمسح بها قفاي، كيف تجرأت وطلبت مني، أمرتني أن أسكب لك؟ وقح... ثم أخذته غيبة فجائية... رمى بعينيه المجمرتين في مدى الصحراء... وتابع غناءه.. يا حمام يا مروح...

ثم سكب في قدحي باتزان من يمثل الاتزان، وسكب في قدحه كيفما اتفق، وجرع جرعة مشتاق.

سأنال منك، قلت في نفسي، رغم إحساسي بانعدام توازني الذي أتصنعه، كنت كالذي يجمع شتات جسده، لا أفكاره، حيث كنت أشعر بأن أعضاء جسدي تتصرف بمعزل عني. يدي تمتد وتلتقط الكأس وحدها... ورأسي يسقط تلقائياً، على كتفي... جربت النهوض، بحجة تعديل جلستي كنديم خصم، شعرت بانعدام توازني واحتمال سقوطي، فعدلت.

تجشأت ونظرت في عينيه، كان يراقبني كثعلب يخادع، ازداد احمرار عينيه مقداراً موحياً بالإجرام، وشفته السفلى ارتخت أكثر، وبشكل ملحوظ، لكنه كان يستعيد حضوره بأوامره:

هات يا ونش.. هات زغاليل.. جاءه بزغلول آخر احترق أكثر على الجمر، فسخه، نفخ ببوق فمه أصابعه، بردة فعل أقل، بلهفة أقل، بإحساس أقل، لكأن الخدر وصل إلى أطرافه.

أعلم سر هذه الحالة، عندما يخفُّ الإحساس بالألم، وتأتي ردة الفعل متأخرة من جراء وخز أو احتراق أو ارتطام.

لوّح يده بشكل شاعري: لذيذ لحم الحمام... كُلْ. وضحك. كلوا واشربوا هنيئاً لكم بما كنتم تفعلون... وسكب في جوفه مقداراً، هدّأ ارتجاجات جسده الهائل، الضخم، هدأ، استكان كجلمود صخرٍ وصل إلى قاع وادٍ، ترنّح وثبت.

تدري، قال:

لو خيّرت بين الجنة وأكل هذه الكائنات مشوية على الفحم، لاخترت جنة الشواء. هذه نعمة... كُلْ، كُلْ... لكأنه نسي أني سجين، ونسي أنه سجّان، وآمر لهذا السجن. والحالة نفسها اعترتني. لكأني نسيت أني سجين، وأني أجلس أو أنادم سيد السجن، رب السجن. وعندما سألته، هل أنت راضٍ عن دورك ومهمتك؟؟ بالطبع، جاء هذا السؤال تلقائياً، لعلَّ جلسة العرق شكلت دفعاً لطرحه. نظر إليَّ باندهاش تام، إذ بدا كأنه لم يتوقع سؤالاً كهذا. حتى زوجته ربما لم تسأله هذا السؤال الوقح.

هل أنت راضٍ؟ هل أنت معجب بوظيفتك؟ هل أنت سعيد أن تكون حارساً على حطام بشري في هذه الصحراء؟ وتمتلك هذه الجثة الهائلة التي بإمكانك بواسطتها أن تسند جبلاً عرضة للانهيار.

ألا تخجل؟

ألا تخجل من هذه المهمة القذرة؟

لا أدري كيف انسابت هذه الأسئلة، ربما شعوري بالتحدي والمنازلة، حفز على أن أستفزه بهذه الاستجوابات. ولكن طبيعة الجلسة التي طالت، تحتمل أي سؤال.

رمقني وقد مال برأسه الضخم على كتفه، وغطى شعره الذي انهدل على جبينه كفحل الماعز، أطال التحديق في عيني، وقد ثبتت عينيّ في عينيه، أطال التحديق، حتى ظننت أنه لم يسمع أسئلتي، وقد سرقته أفكار تتردد عند شاربي الكأس؟؟!!

تسمّرت عيناه في عيني، حتى جسده استقر دون حراك على كرسيه. يداه على الطاولة.

يداه محايدتان، مرميتان عشوائياً، قدحه ماثل أمامه كشاهد أبكم. تمثال، أصبح تمثالاً. صنم جلاد، هائل... قلت في قرارة نفسي غلبت هذا الحيوان، بعد قليل سيقع أرضاً وأرفسه بنعلي... أنا نعل؟ أنا نعل بالنسبة إليك، أجبني. كيف ارتضيت لنفسك هذا الدور الوسخ... كأسك...

رفع كأسه، ضربت كأسي بكأسه، وشربت. رأيته يفرغ إبريقه في جوفه، عطشاً بدا لي كمفتقد للماء منذ أيام، وجاؤوه به فجأة. قرقع... قرقع... قرقع، صوت العرق يتدحرج في حنجرته... قرقع قرقع... كماء ساقية ممتلئة بالحصى... وضع الإبريق بثبات على الطاولة. شدّ على صدغيه براحتي يديه لثوان، وزاغت الدنيا بي، حين رفع رأسه بتمهل شديد، ونطحني.

هات، صرخ، وغبت.

صحوت في اليوم التالي كإمام مسجد معمّم، إذ لُفّ رأسي بخرق بيضاء، بدت لي كعمامة الأئمة.. وعنّ ببالي أن أؤمّ المساجين، وأخطب فيهم خطبة مجلجلة، تحرضهم على اتباع تعاليم الحزب.

لماذا هؤلاء يفعلون بي ما يشاؤون.

هل هو سأمهم من دورهم الحقير؟ يجعلهم يتسلون بالأرواح، أن يطلبوا من أحد منا أن يرقص عارياً في الباحة على قرع الطناجر. وإذا

رفض، يحشون مؤخرته بالفلفل، ويتركونه لهذيانه يتلوى كشجرة عارية في الريح... ويصرخ... ويتخبط كذبيحة لم تذبح جيداً. كيف يتفننون في استحداث وسائل تسليتهم في التعذيب؟

يجلسون صفاً واحداً، ويتفرجون ويقهقهون، على عرض يصنعونه بأنفسهم، يرتمون على مؤخراتهم من الضحك.

هو السأم.. كل من جاء إلى هنا، جلاداً وضحية، سجّاناً وسجيناً، هو مفقود مبدئياً. أمل السجان بالعودة كأمل السجين بالعفو. السجن الصحراوي هو عقاب أيضاً للسجان... ألا تعرف ذلك؟

قال لي مصطفى شبلي.

فرصته الوحيدة لمزاولة حضوره في الحياة، هي الانتقام من مسببي وجوده في هذا المكان.

والمسببون هم هؤلاء الأشقياء، المتمردون، والخونة، والمتآمرون، الحثالة، هم نحن...

فكلما أبلى بلاءً حسناً في الفتك، أصبحت فرص نجاته محتملة أكثر، ويشعر بنوع من التعويض، في كل مهمة تعذيب يقوم بها، فيتحول إلى وحش مع مرور الأيام... وينسى أهله وبلاده، معظمهم يصابون بالجنون، ويرمون في الصحراء للكلاب أيضاً.. هل رأيت.

يقول مصطفى. هو يتحول إلى وحش يفقد مشاعره، حين يتسلى بك، يقهقه، عندما يحوّل لحمك إلى مطفأة سجائر، يندلق ريقه على حنكه وينتشي.

«عرعر» تعرف «عرعر»، ويشير إلى ذلك الرجل الذي يشبه الغوريلا. محبوس في قفص في آخر باحة السجن... كنا نعرف الأوقات من صياحه. كان يصيح مثل الديك أربع مرات في النهار، وهو التوقيت الذي يجلبون له فيه طعامه وماءه..

عرعر، كان اختصاصياً برفع السجناء من رقابهم وتعليقهم في جنزير السقف. كان يمسك السجين من «نقرته» يغرس أصابعه في الرقبة، ويحمله كأنه يحمل هراً من فروة رقبته، ويدفع به إلى الحائط فيرتطم رأسه في الجدار، ليرتمي مترنحاً على الأرض... لقد جن عرعر، وتحوّل إلى ديك، صار يظن نفسه ديكاً، يصيح، وينقد الحبوب... يأكل أكل المساجين، ويبول في الممرات، مرة هجم على آمر السجن وحمله وركض به... غداً يحملونه إلى قلب الصحراء ويتركونه. ومثله كثر.

لا أحد ينجو، القاتل والقتيل، هنا متساويان في مصيرهما.

ويدخل مصطفى في عتابه لرب العالمين.

تدخّل...

تدخّل... أرحنا، خلصنا.

يا... الله...

يرتجّ بدني... ويرتجّ الكون.

مال القمر نحو بدايات الأفول، التفت إلى الوراء... لا شيء، لا أثر يدل على شيء، يتبعني ظلي ممحواً على الرمل، وفرند يؤازر احتمالي...

لا أمامي، لا ورائي، بقايا عظام لكائنات ضالة، أو لبشر تاهوا... وحدها الكثبان مترامية نحو النهايات، ولا أدري لماذا كنت أراها، أو أتخيلها أجساداً أنثوية تعرض بهاءها، لأشعة باردة. تتعرى للقمر، مستسلمة للهبوب الخفيف الذي يحرك حريرها ويدحرجه.

هل ترى يا فرند ما كنت أرى؟

أين أنثاك؟ أم أنت مخصّي، مثل فرحان، هل تذكر فرحان؟ هل تعذبت مثلما تعذب فرحان؟ هل رويت لك قصة هيفا وفرحان داوود.

قال له «الضبع» الجلاد، فرحان ع شو؟ اسمك فرحان؟ فرحان برجوليتك يا كلب؟ تعرف لماذا جاؤوا به إلى السجن؟ بالطبع أنت لا تعرف. أنت تعرف فقط عندما يأمرك سيدك بالانقضاض، كيف تنطلق وراءهم، وتنهش سيقانهم بمخالبك، تمزّق لباسهم، ثم لحمهم... أيها الحقير.

كان «أبو هيفا»... أنت أيضاً لا تعرف أبو هيفا، تعرف صورته،

معلقة في مكتب آمر السجن. «أبو هيفا»، هذا لقب من بعض ألقابه لدى العامة، يتهامسون به سراً.

هو سيد سيد سيد آمر السجن، صاحبك، لاحظت كم سيداً لصاحبك الذي فلق رأسي بسيخ النار؟

هو الذي صفع أمّي ووصفها بالقحبة لأنها لم تزغرد حين أعدم أخي. حكيتُ لك عن ذلك.

المهم. كان مرة يتجول في أحياء مدينة الجسر، وادي الدموع، مسقط رأسي، أو كان بزيارة تفقدية للبلدة، وهذه واحدة من عاداته، وربما كان يفتتح الجسر في بلدتي وادي الدموع التي صارت تسمّى مدينة الجسر. شاهد شلة من النساء والفتيات يتمشين على ضفاف النهر. استوقفهن، وراح يتقصى عن أحوالهن وأخبارهن، وأزواجهن. يصافحهن، واحدة واحدة، يربت أكتافهن.. وصار يسألهن، إذا كن فرحات بالتغييرات التي بدأت ملامحها في البلاد، وبالجسر الذي بناه، وبالسد الذي حوّل قسماً من الصحراء إلى فردوس أرضي يحمل اسمه، وعن رأيهن بقراره حول انخراط المرأة في بناء المجتمع، ومشاركتها في الحياة السياسية والحياة العامة. عن الأم المتعلمة، الأم المثقفة حزبياً، كيف تربي النشء. إن هزّت السرير بيمناها تهز العالم بيسراها...

«هذا لنابليون يا ماهر». كان يسأل ماهر.

وماهر حامل حقيبته ومدوّن أوامره وملاحظاته. ثم بان وجه من بين وجوههن فضّاحاً في جماله، ظالماً في حسنه، نخلة من نخيل نادر.

عيون مها، وقامة... امتشاقات ثم استدارات ممتلئة. يعني: تلك هي المواصفات التي كان على استعداد كامل لأن يعيد النظر بأي قانون، تعديلاً، أو إلغاءً، أو اجتهاداً في سنٍ جديدٍ، لكي يحصل على شرف «خطب ودّها»؟؟.

أعجبتك هذه العبارة يا حقير؟

نبح فرند نباحاً خفيفاً.

وخذْ أكثر من ذلك. كان على استعداد لإعادة النظر في روح الدستور.

هل سمعت بهذه العبارة سابقاً يا فرند؟ أيضاً نبح فرند، نباحاً من درجة أعلى، نباحاً يوحي بالاحتجاج، بدا كأنه مخلص للدستور وللقوانين العامة!!

حقير، حقير أنت أيها الصديق...

المهم. عندما لمح بهاء ذلك الوجه الذي يمثل له ذروة الاشتهاء، انخفضت هيبته السلطوية، انخفض منسوبها بشكل ملحوظ، صافحها مرحباً بها بشغف موّهه، بتعفف عرضي، وأطال المصافحة والإمساك بيدها، يا هلا، يا هلا، يا هلا.. وسألها عن العشيرة والأهل، وإذا كانت ذات بعل. أجابته وقد طفح وجهها احمراراً. أجابته بخجل ورهبة، عن كل شيء، وعن بعلها الذي يدرِّس الأدب في كلية الآداب في العاصمة، والذي أعفي بمرسوم خاص من الذهاب إلى الجبهة. وشكرته على احتضانه للأدباء وإفساح المجال أمامهم في العطاء...

ربت كتفها ومشى. خطا خطوتين وعاود النظر نحوها، لكأنه وجد التدبير المناسب، ماذا قلتِ لي اسمه؟

أجابته بامتنان: فرحان، فرحان داوود.

طلب من مرافقه ماهر: سجل، سجل اسمه، فرحان داوود، ما شاء الله ما شاء الله. اسمه على اسم النبي داوود.. وضحك ضحكته التي تشبه توقيعه على مرسوم. ضحكة مدروسة بتأنٍ، تخفي ما تخفي وراءها من نوايا. خلع نظارته، ورمى بنظرة تأملية في ماء النهر، لكأنه تذكر واحدة من حكايات النبي داوود، أو أنه استلهم من النصوص المقدسة أمر التدبير.

انتقل فرحان داوود، عشية ذلك اللقاء أو عشية جولة القائد التفقدية، من كلية الآداب، إلى الجبهة كي يحاضر في الجنود، ويقرأ عليهم شعر الحماسة.

هكذا جاء في المرسوم، أو في مذكرة التبليغ، رقم ١٢٨٦٠:

«يُنقل على الفور، ولأغراض قومية، الدكتور فرحان داوود، من مركز عمله في كلية الآداب، إلى الجبهة، لأن المصلحة العليا تقتضي الاستفادة من مواهبه في تحفيز وشد عزيمة جنودنا البواسل ومقاتلينا الأشاوس، من خلال قراءة شعر الحماسة خاص فحول الشعر في أمتنا المجيدة، ويزوّد بقصائد من أشعار القائد حفظه الله».

انتهى

ملاحظة: يمنع من الإجازات حتى انتهاء الحرب التي سنفوز بها بعون الله وبحكمة القائد.

في تلك الليلة، لم تعد هيفا إلى بيتها. ولم يعد فرحان داوود إلى ما بعد انتهاء الحرب. عاد إلى بلدته مدينة الجسر، وادي الدموع، وكان الخبر الذي شاع، قد أتلف عقله، مثلما أتلف الهجر البيت، بيت أهله.

جنّ فرحان. كان يمشي حافياً شبه عارٍ، في الخلاء، ويغني.. قصيدته الشهيرة:

مين أمّنك ما تخونو ولو كنت خوان

هيدا زمن لا رجال فيه هيدا زمن خصيان...

ذاع صيت القصيدة، وصارت أبياتها مضرب مثل على كل لسان.

أيام قليلة. اختفى فرحان داوود، لم يعد أحد يسمع صوته في أنحاء البلدة، حتى الرعيان في الخلوات، افتقدوه.

قصيدته هي السبب، هكذا دارت الأحاديث وتناقلت الألسن. لقد وصف القائد بالمخادع المخصي، تهامست الأفواه هذه العبارة بحذر شديد.

فمن يجرؤ على هذا الكلام. لقد جنّ. فالذي سطر مذكرة بنقله إلى الجبهة، يستطيع تسطير أخرى، بتهمة تكفي لأن يمضي ما بقي من حياته في السجن الصحراوي... وهكذا كان مع توصية خاصة بانتزاع رجولته وخصائه.

... وجاءه «الضبع» الاختصاصي الأبرع في إذلال النفس، وتحطيم الروح...

وصاح: «فرحان داوود؟ فرحان برجوليتك يا نعل...»، وغاب فرحان مع هذا الكائن المروّع، في غرف التعذيب، ليصير نصف إنسان.. نصف رجل، يجترّ ألمه الغائر عميقاً في ثنايا روحه.

بعد أيام، جاؤوا بزوجته، عرّوها أمامه... وسأله:

- تعرفها؟

وكيف لا يعرفها. سقط أمامها كعباءة مهترئة.

- أراد القائد أن يكافئك على قصيدتك.

لم يسمع، غار عميقاً في الذهول، وانفصل نهائياً عن العالم.

وعندما جاؤوا بي في تلك الليلة العمياء، صرخ مصطفى شبلي في مناجاته... طلب من الله أن يتدخل ليحسم الأمر، فارتجّ السجن.

ارتجّ الكون، وأصيب بالتصدع، عندما عروني...

مرّت عشر سنوات من تاريخ التحاقه بالجبهة حتى ذلك اليوم.

هذه قصة فرحان داوود.

على من تقرأ مزاميرك؟ يا أنا...

نظرت إلى فرند، بدا لسانه أطول مما كان عليه... سألته:

عطشت. الظاهر أنك عطشان. ومائي لا يكفي لعطش واحد، فكيف لعطشين. ها.. ها.. ها.. وابتلع الهباء ضحكتي، والتف السكون على حلقي... كنت أبدو أكثر توازناً، لنفسي، عندما أتهكم، وأكثر احتمالاً.

تلك طبيعتي الساخرة، القديمة، التي أحبها. هي واحد من طباعي. هي المفضلة عندي، ولكن ما إن تعودني حتى يغلبها خوائي.

كانت تلك الحكايات، حكايات رفاقي، عندما أتذكرها، تضاعف حملي، وأشعر بالألم الذي يطال مكاناً أعمق من الموضع الذي يصيبه السوط، وعندما أستعيد ما حلّ بي، أو ينفذ إلى ذاكرتي من خلف غبار السنين والنسيان، أصاب بنوبات عصبية تفقدني صوابي. لا أقدر أو لا أذكر شيئاً، من عوارض تلك النوبات، سوى بدايات إحساسي بغضب وبصراخ وشتائم أطلقها على نفسي وعاهتي، وكلبي...

كان صوتي حين أروي حوادث، أو بالأصح أتذكرها بصوت عالٍ، يسليني، وينسيني ما أنا فيه. ولكن سرعان ما يتبدّد هذا كله، حين أسكت وأتأمل في ليل الصحراء القمري، ويفيض منسوب الصمت والوحشة.

كان فرند يتبعني أو يماشيني، يجفل أحياناً من هلوساتي وصياحي. وقد احتفظت له بالعلبة المعدنية.

عطشان؟

رمقني بنظرة ذليلة.

سكبت له الماء واقتصدت، مثلما أقتصد لنفسي. ليس هذا بخلاً، بل تدبير احترازي أو وقائي، ومن ساواك بنفسه ما ظلمك. يا الله كم هي عظيمة هذه الحكمة.

ولكن كيف هذا، أين العظمة في هذا الكلام؟ أي نفس تساوت مع نفس أخرى؟

هل ساواني جلادي بنفسه؟ صفعة بصفعة، وسوطاً بسوط، ورفسة نعل على الصدر برفسة نعل؟

لا. لا. لا أريد أن أتذكر ذلك، كنت أحاول أن أطرد هذه الأفكار والمشاهد من رأسي. ولكنها تلحّ وتمثل أمامي.

وأنت هل ساواك صاحبك آمر السجن بنفسه؟ هل كان يطعمك من طعامه، ويشربك من مائه، ويأخذك في رحلاته إلى الصيد؟

بدأ يتصاعد مزاجي المأساوي، هكذا أحسست وأنا أسأله: كيف سنتدبر أمرنا بماء لا يكفي لهر، وليس لبني آدم وكلبه، أفضل أن أصحح وأقول: بني آدم وكلب. أنت لست كلبي، وأنا لست صاحبك.

فهمت.. فهمت يا حمار. وبدأت بالصراخ، ولم يكن من داعٍ على الإطلاق لصراخي. ولكني شعرت حينها أني بدأت أتصاعد. أو بدأت أهوي وأتدحرج. وإذا لم أرتطم بشيء فسأتابع تدحرجي نحو مكان مجهول، وكان صراخي هو اصطدامي، اصطدام نفسي بنفسي، أو صوتي بالعدم.

لا أدري فعلاً، لماذا هاج انفعالي، ورحت أصرخ وأشتم نفسي وكلبي، وتعثري الذي بدأ منذ ولادتي ربما، في تلك البلدة الملعونة التي طردنا منها إلى مصائرنا بعد مقتل أخي مهدي.

ولا أظن أن مسألة الزاد والماء هي السبب. قد تكون ذريعة لاواعية. ولكني ما فكرت فيها، أو فكرت بطول المسافة، وهل تكفي أو لا تكفي للوصول. فعندما حملت ما تيسر حمله ومشيت، لم أمشِ على بينة أو مخطط لمسار واضح. ولم تأتني أي فكرة، بعد مضي يومين وليلتين، عن المكان الأول الذي سأفطن إليه، أتذكره، قبل أن أضعه مقصداً نبيلاً لسعيي العدمي!!.. هناك أمكنة كثيرة في ذاكرتي، بعضها

أصيب بنوع من الامّحاء أو التلف، وإن كان بعض ملامحها يهلّ في البال، كنجم يظهر ويختفي خلف جبال الغيوم...

كنت أغمض عينيّ وأحاول استرجاعها كاملة، فأصاب بالخسران.. وأتألم... وأشعر أني مشتاق لشيء. شعور يومض على عجلة ويغيب يختفي، أتبيّن بتعثر خلف ضبابه الكثيف بيتاً وامرأة، وصبياً يلهو عند عتبة البيت سرعان ما يختفي. فأصاب بالفراغ الكلي، فأصرخ، وأصرخ، وأجدّ في المشي وتختلط عليَّ الجهات، ويختلط عليّ وعيي بجسدي، أجرّ قدمي خلفي كسلاح جندي عائد من الهزيمة، وأشتم صائحاً باكياً، رأسي مرفوع نحو السماء يلوّح وتلوح فيه أو تعصف فيه أصوات فجائعية.

كان صوتي يوحي لي أني أتألم، وما كنت أتألم حينها، كنت خدراً، فقط كان يوحي بذلك إليَّ وحدي، وليس من سواي في الأصل هناك، أو هنا، لكأني أصرخ من أجل الصراخ، أو أصرخ عليه كي يهدأ، ولم أفلح في تهدئة ثورتي، صار يعلو عندي مزاجٌ لعين، مزاج حافة الهاوية نحو الجنون، ما جعلني أجثو راكعاً، أفتح وأرفع يديّ متضرعاً نحو ذلك النجم الهائل البريق، والغاوي في السعي نحوه، هو في جهة من تلك السماء تحيط به جمهرة من النجوم، مختلفة الأحجام والبريق... الأصغر، فالأصغر، فالخافت والذاوي، لكأنها سليلة عائلة واحدة ذات فروع وأصول ولها رب.

خفّ تصاعدي، صرت أنحدر، وأهدأ، على مهل، أنخفض

وألهث... حتى بدأت أستعيد نفسي من شتاتها، ووعيي من تشظياته.

... ووجدتني هكذا جاثياً، رافعاً يدي نحو سماء الله، ممعناً في لمعان النجم. تأملت ما أنا فيه.

بدوت لنفسي مثل إله وثني منسيّ في هذه الصحراء، في هذا العراء، استُثني من الاقتلاع والتحطيم، أبقي عليه ليذكر الزمان بالضلالات أو المساومات، هكذا بدوت لنفسي، مثل إله وثني، صنم. استأنست، وراقتني تلك الفكرة. وافتكرت باللات والعزى، وبأصنام أهلي القدماء في الجاهليات، وقلت لو مرّ بي أحد، ورآني، لعبدني وقدّم لي الطعام والبخور والأضاحي.

هي عوارض «حمّائي»، أو حمّتي.

قلت.. هي هلوسات من مثلي.

بقيت لوقت رافعاً يدي نحو السماء. رأسي حانٍ على كتفي اليسرى، وعكازي أمامي مغروس كوتد في الرمل.

رأيت ظلي باهتاً مرمياً جانبي. ظلّ ملتحٍ، رأيت ظلّ لحيتي يتحرك... يحركه نسيم رحيم في برودته.

رأيت ظلّ يدين. يدين متضرعتين. مهيّأتين، لاستقبال الرحمة، أو الوحي، أو طلب للغفران أو النجاة...

ما هذا الذي أنا فيه؟ سألت، وهل أنا مهيأ للشطحات العالية في سبر أغوار الكون، ومجاهل النفس.. هل أنا فرخ نبي؟؟ وجلجلت

ضحكتي.. عادني التهكم الذي وحده يشفع بحالي في هذا التيه الغاوي حتى داخل الذات. وعدت إلى بدايات التقاطي لذاتي الحاضرة في هذا العراء، ذات السجين الذي مشى، وصار له صاحب.

... وتذكرت فرند، انتفضت، التفتّ أمامي وخلفي وعلى يميني ويساري.

لا أثر لفرند...

ظننت أنني كنت في حالة من تلك الحالات التي تصيبني عادة، وتختلط عندي التقديرات، وأصبح في شك من أمري، وأسأل: هل ما حدث معي، هو وهم أم حلم أم حقيقة؟؟

أيهما الحلم؟

أيهما الحقيقة؟

هل كل ما صار، ورويت؟ هل كل ما مرّ بي وتذكرت بعضه ورويت عن بعضه، صار فعلاً؟

أم ما أنا فيه الآن، ما أعيشه، ومن هذه اللحظة ستبدأ الحكاية، لأروي عنها؟

رجل وجِدَ، أو وجد نفسه جاثياً على ركبتيه وسط خلاء تام صحراوي في ليلة مقمرة، ساهماً في نجم غاوي اللمعان محرض على التيه،

رجل ظن أنه نجا من السجن الصحراوي بعد تدميره، وأصبح برفقته كلب، سمّاه فرند، صار يقص عليه حكايات أهله ورفاقه؟

أم رجل بدأ الآن حياته. تماماً في هذه اللحظة. هكذا خلق، هكذا وُلِدَ ووجد نفسه دفعة واحدة في كهولته. هنا في هذه الصحراء. في هذا الليل المقمر المعري لبعض المدى والكثبان. لا يعرف من أين أتى؟ ولا إلى أين يمضي؟ لا يعرف من أتى به؟ ولماذا دفعة واحدة قُذف به إلى كهولته وإلى هذا المكان؟

رجل ناقص مطروح منه عمر مديد...

رجل لا نفع فيه، لا يصلح، سوى وليمة شحيحة لطائر ضلّ سربه.

من أنا؟

من حملني بكل عمري الماضي إلى هنا؟ وكيف تبدّدت سنواتي دون انتباهي؟!

ارتمت يداي تلقائياً من تضرعهما، على الرمل البارد.

ارتمت عصاي، من تلقائها، لكأنها يد ثالثة تخصني.

أحسست بارتخاء فظيع في جسدي، وبخدر يسري من أصابع القدمين، وبنعاس ما راودني مرة على هذا القدر من الإحساس بالغياب. لكني استخدمت بعض الحوافز، كأن أتذكر بهاء القمر.. وقلت لأمتحن صوتي، ليس بالكلام، أو بالغناء، أو ما شابه ذلك، بل بالنباح، مثلما كان أهل الصحراء يستنبحون حين يقعون في التيه، ترددت، وأحسست أن النباح في تلك اللحظة شيء معيب. ليس معيباً تماماً، بل لا يصلح للامتحان! هكذا قلت. لماذا لا أجرّب صوت الغنم، وافتكرت بصوت الغنم، بالثغاء. وتذكرت تلك الحكاية التي روتها لي أمي عن أحد

الأنبياء، إبراهيم، حين حمل ابنه ليقدمه ضحية، أو ذبيحة للإله، فاهتدى إلى كبش افتدى ابنه، وصار الغنم أضاحي.

لكأني خفت من الثغاء في جعلي ذبيحة لإله ما في هذا العراء. اسمه إله الصمت.. ولكن أي يد تأتي لحملي؟؟ وسخرت من فكرتي.

وقلت لِمَ لا أُجرّب صوت الماعز؟ لكن أيضاً تلك الحكاية عن الماعز لم تشجعني، هي أيضاً واحدة من حكايات أُمي، عن أحد الأنبياء الذي اختبأ من أعدائه وسط قطيع من الماعز الذي تشتت، وفضحه لأعدائه، لينال بعد ذلك عقابه بغضب إلهي جعل من عورته مكشوفة كالفضيحة إلى أبد الآبدين.

أيضاً، أمرُ تقليدي لصوت الماعز لم يعجبني، ولم أستأنس به، ليس لخوفي من غضب ما يجعلني مكشوفاً، ثمّ ليس من كائن مكشوف أكثر مني في تلك اللحظة. ورغم اني ميّال للثغاء، أو بالأصح، ليس للثغاء، بل لتلك الحكاية الأخرى عن الغنم، الذي التمّ، على جسد النبي، وخبأه بعد أن فضح أمره الماعز، فكافأه الله بتلك الألية الساترة على عكس الماعز... برغم ذاك وذلك، لكأن مزاجي أصبح نباتياً، بعد استعراضي لأصوات الكثير من الحيوانات، كالصهيل مثلاً، لكن أمري يبدو سخيفاً، أن أصهل كمهر.. أو أخور كعجل، أو أموء كقط، ولا أعرف، لماذا كنت ميّالاً، مفضّلاً لذلك الصوت الذي يشبه العواء، ليس كعواء الذئب، أو كلب جريح، أو ثعلب مخادع. عواءٌ آخر، موغلٌ في ذاكرتي،

هو صوت كنت أسمعه في سنوات طفولتي، عندما كانت الريح تبدأ مراسمها الجنائزية، في تلك الجبال والكهوف. وهذا أمر عسير على الفهم، حتى مني، وتقليدها أشد عسراً.

عندما كانت الريح تشتد في تلك المواسم، على سفح الجبال، تبدأ مراسم غناء، ومناحات تختلط بصفير يخرج من فلقات الصخر، ومن الفتحات، وأخرى على شكل العواء، الأشبه بعويل النساء في لحظات الفجيعة... هذا أمر عسير تفسيره وتقليده، لكني فعلت وعويت.

عويت. عو..أو...

عويت.. أو... أو... أو... عو...

وأدركت للتو وبلحظة خاطفة ويقينية، أن عواء الإنسان في التجربة القصوى من التخلي، أشد مرارة ونواحاً من عواء الريح في جبال الغربان...

أو... أو... أو...

طوّقت صوتي حلقة السكون.

سقط من النجم مقدار أعم وأثقل من الصمت، ودوّى على جسد الصحراء...

فسكت.

صرت أتلفت في الأنحاء، مدركاً لفعلي، لماذا كنت أتلفت. كنت أريد أن أؤكد حقيقة ما مرّ بي. كلّ ما حدث هو حقيقة، وليس حلماً، أو غشاوات صور تشبه التي كانت تأتيني في لحظات غياباتي في السجن...

صرت أتلفت وأعوي:

أو... و.. و....

جاوبني، جاوبني عوائي، تردّد صوتي في مطرح بعيد مني، أتاني بعد وقت ليس بقصير، عويت ثانية... ورحت أصغي نحو مركز تردّده الذي بدا لي كأنه من واد سحيق... وادٍ يفصل بين جبلين عملاقين... وليس من جبال في المدى المتاح أمامي.

وانتظرت أكثر مما انتظرت في المراة الأولى، لا جواب لصوتي، أو لعوائي.

قلت: تلك تهيؤات... أو إلحاح للرغبة في ذلك، في استعادة ذكرى من هذا النوع: عندما كنت أصرخ أو أنادي على كتف الأودية ويتردّد صدى.

لكنه تردّد، ثانية، بعيداً وخافتاً وموجعاً...

لم تكن تهيؤات، ما أسمعه هو حقيقة. ولكنه ليس صدى لصوتي، هو صوت فرند، الذي فرّ على ما يبدو عندما جاءتني نوبة جنوني، وهذياني، خاف مني، وتركني، لينجو من سخطي.

رحت أناديه، بلهفة من أضاع وليفاً، ووقع على أثر له.

تبعت مصدر صوته...

فرند لا تخف، أنا لن أؤذيك، أنت صديقي. أين أنت؟

أو... عو... أ... من بعيد من خلف كثبان مترامية كان يأتي الصوت.

وجدته. رأيته منطوياً على نفسه، خلف كثيب، يرتجف، أحس بي، فتجمع أكثر، انطوى أكثر، دفن رأسه بين ساقيه، لكأنه ظن بي سوءاً. أن أهوي بعكازي على رأسه. لكنه بالتأكيد اشتم نيتي، ولهفتي. ومثّلَ هذه الحالة من الامتثال المقنّع بالخوف، أو بالتظاهر بالخوف.

اعذرني. اعتذرت منه.

ما كنت أقصد أن أجرح شعورك، لعلك تقدّر أني مررت في واحدة من تلك الحالات، أو النوبات اللعينة التي تفقدني صوابي. اقتربت منه أكثر، نظر إليَّ بطرف عينه، ما بين الحذر والاطمئنان، هكذا بدا لي. لا تخف، وهل تخاف من كائن مثلي شديد الهشاشة والهزال، ليس بمقدوره سوى الكلام؟ مسّدت براحتي رأسه ثم مررتها على ظهره، مكرراً اعتذاري من نوبة جنوني التي جعلته هلعاً مني.

لا تخف. كيف تخاف مني؟ فكيف الأمر لو مرّ بنا وحش، تتركني لشدقيه وتولي..؟

ولو!!

عاتبته.

صرت أمسّد جسده براحتي، بدا منشرحاً لفعلي، وعندما شعر بالأمان وارتضى اعتذاري، عضّ يدي برفق، عضّها بمداعبة، لكن بدني اقشعرّ وتوجّست.. اكتفى بهذا المقدار من المداعبة، ثم تمطى ووقف. تثاءب وانتفض.

ونبح نباح الود العظيم.

وقف أمامي. نظر في عيني ونبح ثانية، كأنه يؤنبني، أو ينصحني بعدم تكرار صياحي، وألغى المسافة نهائياً بينه وبيني، وكنت سباقاً في توددي عندما لمسته للمرة الأولى، وحككت له رأسه ورقبته.. ثم قام بحركة استعراضية ما كنت أتوقعها على الإطلاق، حيث تركني وراح يعدو نحو البعيد، لكأنه في واحدة من وظائفه القديمة، كصياد للطيور والكواسر، أو كمطارد للهاربين من السجن.

وغاب في الليل الفضي الضوء.. حتى ظننت وانتابني الريب أنه ودعني وتركني لمصيري، كي لا يقاسمني زادي ومائي.

أصبت بحالة من الذهول، لكني تذكرت أنه قد فعل هذا ليلة أمس، وقلت في نفسي، لا بدّ أنه اشتمّ رائحة ما. صارت تراودني أفكار سوداء.

ترى هل شمّ رائحة صاحبه؟ ولكن صاحبه رأيت نصفه يتدلى من النافذة!

هل يعقل أن يكون أحد سواي قد نجا مثلي فانطلق لملاقاته؟ أو ربما اشتمّ رائحة فريسة ما؟ أين اختفى هذا الكائن؟

لم أفقد حسن ظني به نهائياً، ولم أستسلم لأي فكرة أو توقع... بقيت أنظر إلى النقطة التي غاب فيها عن نظري خلف تدرج من الكثبان... بعد قليل بان في المطرح نفسه حيث أراقب، عائداً بسرعة أقل، وعندما بدأ يقترب مني شاهدت في فمه شيئاً، وصل، رماه أمامي، إنه طائر حمام، في عنقه طوق وفي الطوق محفظة بحجم علبة الكبريت.

تذكرت للتو ذلك اللعين الذي فلق جبهتي بسيخ النار. هذا الطائر كان واحداً من سربه. كان الحمام أكلته المفضلة. لمرات في الأسبوع كانت تعبق رائحة الشواء من على شرفته، حيث جاؤوا بي مرة إليه لأغني له فرفضت، وانتهت منازلتي معه بضربة قاضية من رأسه على جمجمتي.

كان بعض أقارب السجناء يبعث إليه بهدايا، أقفاص من الحمام، ليحسن معاملة أقربائهم. وكان هناك سجين اسمه فالح، والمعروف عن فالح، أنه كشاش حمام وحرامي، هذه من خصاله، المدونة في سجله. أما تهمته فتشابهة مع معظم التهم ـ متآمر على أمن الدولة... وقد كلفه آمر السجن أن يهتم بالحمام، وخاصة بتلك التي كانت تأتي بأقفاص، وتحتاج لترويض كي تتآلف مع فضائها ووطنها الجديد الذي لا تدوم فيه كثيراً، لأنها سرعان ما تتحول بعد أيام إلى وليمة على شرفة ذلك اللعين.

صار فالح يقضي بعض وقته على سطح السجن، يطعم الزغاليل، ويعلمها على التآخي، أو التآلف مع هذا العالم العجيب، حيث لا شيء هناك، ولا من كائن سوى هذا المبنى المروّع المزروع في وسط الصحراء، وفي داخله أرواح لأطياف آدمية، وعلى سطوحه أقفاص، مغطاة بسعف نخيل.

كان آمر السجن لا يعرف عديد سجنائه، وعديد السجانين والحرس وتوابعهم فقط، بل كان يحصي يومياً أعداد الطيور في سرب الحمام، الذي يزداد ويتناقص حسب شهيته.

كان شديد الحرص على أن يحصي سربه يومياً من على سطوح السجن. وكنا نراه أحياناً من الباحة، حيث نخرج إلى يوم الشمس، واقفاً وبالقرب منه فالح، يشير بإصبعه نحو السرب الذي يطلقه في الفضاء، ويوجهه فالح بخرقة سوداء على رأس قصبة طويلة يلوّح بها، ثم يأمر فالح أن يعدّ طيور السرب، يبدأ فالح: واحد اثنان ثلاثة أربعة.. عشرة.. ثم يختلط السرب ويضيع العدد، فيصفعه، قائلاً: أنت تغلط بعدد أصابع يدك الواحدة يا غبي، ويركله، فيسقط، وينهض كنبّاض قائلاً:

أظن بين الأربعين والخمسين.

أيضاً، هذا نوع آخر من ابتكارات التعذيب التي اخترعها، كانت واحدة من سلواته في لحظات سأمه. وكان هذا النوع يطال الجميع دون استثناء. فالذي يستطيع إحصاء أعداد الطيور في السرب، يكافأ

بجلسة كأس من العرق... بالتأكيد تنتهي بمذلة مروّعة. أو أن يرافقه من يستطيع ذلك في رحلة من رحلاته في أيام الصيد. كان يتبعه مشياً وهو في سيارته العسكرية، يحمل له كرسياً وطاولة وبراداً صغيراً من الثلج والماء وزجاجات من العرق اللبناني، كان مولعاً بالعرق اللبناني. وكان يمد رأسه من نافذة الجيب، ويسأل من وقع عليه الحظ، أنت تحب السجن أم الحرية، يا فلان... والجواب المتوقع دائماً، أو المطلوب دائماً، الحرية... فيضيف، هذي هي الحرية.. امشِ. ويهتز جسده الهائل من الضحك ومن ارتجاجات الجيب.

كانت تلك هي المكافأة، ولكن قلة الذين حظوا بها، وندموا وتمنوا لو أخطأوا في التعداد أو تاهوا عن ذلك، وفي الواقع من أصاب منهم العدد الصحيح، أصابه بضربة حظ، فحين يبدأ بالتعداد ينتهي ليقول رقماً معيناً تقديرياً للتخلص من مهمة، نتائجها مأساوية في كلّ الأحوال، فكان يتعجب من مقدرة من يفوز، ويتشكك في مسلكيته، يتأمل فيه طويلاً، يزنه؟ ويسائله: كيف عرفت؟ والجواب المتوقع، عددتها.

عددتها، أم قال لك هذا النحس فالح؟ فيقسم فالح قسمه الشهير: ورافع هذه السماء بدون وتد، لم أقل شيئاً.

كان يفتح راحة يده ويعكف أصابعه، ويلتقط الرأس من ناحية الصدغ، ويعصره، للحصول على إجابة صادقة، وتأتيه دون تردد. حيث إن الإحساس بإمكانية اختراق أصابعه كالنبال في الرأس، قوي وكاف للاعتراف الفوري.

ـ ها، «ينخع» هاءه من خياشيمه، كيف عرفت، عددتها أم هذا تقدير؟

ـ نعم. قدّرت أن العدد أربعون.

ـ فزت.

وتبدأ رحلة الصيد. ويا ليتها لم تبدأ. كان السجين ينطرح لأيام بعد عودته، محموماً، لا يقوى على تحريك يده من مكانها، أو إزاحة قدمه التي لم تتعود قطع هذه المسافات عدواً.

جبار ذلك الكائن.

ذات يوم غير بعيد عن ليلة تدمير السجن، عن ليلة القيامة، كما أحب أن أسمّيها، تلك الليلة التي أصبحت تبعد عني أياماً ثلاثة، فقد طائران من السرب، زوج حمام.

وحين سأل فالح عن مصيرهما، قال له لا أدري يا سيدي، هذه نفوس طائرة وكل نفس ذائقة الموت، لعلها ماتت في هذه السماء.

ضحك ضحكته المجلجلة وارتج بدنه الهائل، وقال: والله يا فالح ما كنت عارفك، فقيه وورع و... كل نفس ذائقة الموت، أم ذائقة الحمام يا فالح؟؟!

ظن قائد السجن أن فالح تدبّر أمر زوجي الحمام وأكلهما سراً.. وتمت عملية الشواء على السطح. تفقد السطح، استنفر الحرس، وسأل إن كان أحد شمّ رائحة الشواء، في غيبة من غيباته في الصيد؟

تقدّم منه وشمّه، شمّ ثيابه، فتش بين أسنانه عن احتمال وجود بقايا!

الحمام يموت أيضاً، لا يُذبح فقط ويشوى، يموت مثل كل الكائنات. قال فالح، حين غرس ذلك اللعين أصابعه في صدغه. وأطلق قسمه الشهير: والذي رفع السماوات بدون وتد، يمكن طاروا، وما عرفوا يرجعوا...

وهذا ما حصل، بالفعل. طارا بعد أن حمَّلهما رسائل إلى أهله.

تركه. ليس بدافع الرحمة التي دبّت بصورة مفاجئة، بل لتسليمه بالاحتمال الذي قاله فالح، وأمر بتحضير العشاء على الشرفة.

فالح، كان قد سمع بالحمام الزاجل الذي يحمل الرسائل ويقطع الفلوات، ويعرف أن الحمام يعود إلى أوطانه، فخطر بباله عندما جاء أحد أهالي المساجين بقفص من هذه الطيور هدية لأمر السجن، أن يحمّل لزوجين منها، رسائل لأهله، ففعل. خط رسائله ليلاً، صنع لها محفظتين، من جلد فرو ثعلب، كان يجففه على السطح، ومع الفجر كانت الرسائل في طوقين أيضاً من الجلد، أحكمهما إلى عنقي الطائرين، وأطلق سبيلهما. لعلهما يصلان إلى مطرح من البلاد... هكذا قدّر، إذ إنه لا يعرف مصدر هذه الطيور أو أوطانها، وبالتأكيد، ليس كل الحمام زاجلاً، لكنها ضربة حظ، أو هي احتمال من احتمالات فاقدي الأمل.

فككت الطوق وفتحت المحفظة، أخرجت منها رسالة فالح، لم أتبيّن ما كتب فيها، ولم أستطع قراءتها على ضوء القمر. في صباح اليوم التالي قرأتها...

إلى أهلي في الكرخ...

أما نص الرسالة، فكان قصيدة لمظفر النوّاب:

مرينـا بكـم حمَـد

واحنـا بغطـار الليـل

وسمعنـا دق قهـوة

وشمينـا ريحـة هيـل

يـا ريـل صيـح بقهـر

صيحـة عشـق يـا ريـل..

وحزنت حزنين، لكلٍّ منهما مرارته.

حزنٌ على فالح.

وحزن على طائر الحمام.

واحتفظت بالرسالة. لم أرَ فالح، لم أذكر أني رأيته حين خرجت من ذلك الخراب الكوني.

تخيلته على سطوح السجن يلوّح لسرب تائه في الدخان، بخرقته السوداء المحكمة إلى طرف قصبة طويلة. تخيلته وحيداً بقي هناك يلوّح للسماء...

لا أحد.

لا أحد هناك... رأيت عالياً هلع طيور الحمام تروح وتجيء، وتتهاوى...

حين كنت أرى وجه فالح، كنت أتذكر وجه بدر شاكر السياب، في صورة يتيمة حملتها معي من قبرص إلى بيروت، لا أعرف أين أصبحت. ربما تركتها مع بعض أشيائي ورسائلي وقصائدي أمانة مع هدى في وادي أبو جميل، في مدينة بيروت.

هذه رسالة من فالح. قلت لفرند، وأحسست أن لدي رغبة في البكاء.

كانت رغبة عابرة في البكاء على أمور كثيرة..

هل تعرف فالح يا فرند؟

هذه رسالة لأهله في بغداد.

كان فرند يتمعن في وجهي ويحاول التواصل معي. أراه، هكذا، يصغي بشغف ورغبة في التواصل.

ماذا تقدّر يا فرند. لو نجوت وذلك الضبع السجّان، أو سيده، والتقينا في هذا الخلاء، هل كان فعل ما فعلت؟

هل كان شعر بالوحشة أو بالندم، أو بالحاجة إلى أنس؟

هل يموت الجلاد في الإنسان يا فرند، مثلما مات فيك الذئب المفترس؟ أو الوحش الذي نمّوه فيك؟ ودرّبوه لتصبح شرساً معادياً؟

لا أدري...

ما الذي خطر ببالك لتأتيني بطائر ميت، تريد أن تقول لي إنك صياد أيضاً؟ هل أردت ذلك، عندما شعرت أني أهينك، لأنك تشاركني خبزي ومائي؟ أنا، لم أكن أقصد ذلك.

أم أنت أردت أن تبرهن لي عن مواهبك الأخرى في مصارعة الجوع بالإتيان بالطرائد كي تخفف خوفي من المجهول؟

لا أعرف. هذه ظنوني، أو تمنيات شخصية..؟؟

تُرى، هل كان فعل ذلك الكائن البائس الذي أسميه سجاني، ما فعلت أنت؟ أم كان استولى على كيسي وخبزي ومائي، وتركني لمصيري في هذه الصحراء..؟؟

لا أريد أن أجزم، ولكن في نهاية المطاف أظنه سيفعل. فالقوي يا فرند، لكي يبقى قوياً، عليه تخفيف أحماله وأعبائه، سأكون عبئاً عليه بعاهتي وببطء سيري، وبامتلاكي لبعض الطعام الذي لا يكفي في الأساس لنصف رجل!!

أرأيت يا فرند كيف تتجلى عندي نوبات غير نوبات الجنون. الفلسفة والحكمة والتحليل... يا حقير يا فرند. وضحكت، واعتاد فرند، عندما أضحك ساخراً، أن ينبح نباحاً مجانياً...

تعال لندفن هذا الطائر.

حفرت في الرمل، دفنت طائر فالح، بحثت عن حجر، عن شيء، أصنع منه شاهداً لأحفر عليه: هذا الطائر من الحمام، هو طائر السجين

فالح في السجن الصحراوي... إن مر به أحد، يبلغ سلامه إلى أهله في الكرخ.

ولكن من أين أجيء بحجر لأصنع منه شاهداً لقبر الحمام؟

كتبت بإصبعي على الرمل:

هنا دُفن طائر فالح السجين في السجن الصحراوي

كان يحمّله رسالة إلى أهله في الكرخ، (...)

أعلم أن الهبوب سيتكفل به، ويمحو ما كتبت.

إني أهذي يا فرند. أليس كذلك؟

ماذا تريدني أن أفعل؟

تريدني أن أنشد قصائد المتنبي... لو مر المتنبي من هنا لكنا خسرنا أكبر شاعر في تاريخ العرب، أتريدني أن أمتطي عكازي وأنشد:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ماذا تريد من هذا الحطام البشري أن يفعل سوى الجنون والضحك والتهكم؟

لكم أنت مجنون مثلي يا فرند، مجنون وحقير في الوقت نفسه، لعنة الله عليك...

وارتميت من شدة الضحك على قفاي.

جفل فرند، ابتعد قليلاً، ثم اقترب مني وصار يراقبني بحيرة واندهاش.

للمرة الأولى أسمع ضحكتي بهذا الوضوح، وصرت غير قادر على التحكم في نفسي، حتى كدت أن يغمى علي، كما حصل لي مرة مع ذلك الوغد الذي صار ينبح في وجهي، عندما علم أنني أكتب الشعر...

تنهنهت. أغمضت عينيّ. ووازنت عملية التنفس. بقيت ممدداً على ظهري لدقائق. شعرت بفرند يقترب من وجهي، مرّغ وجهه في لحيتي.

فتحت عينيّ على السماء، وقلت يا الله، لكم هذا ثقيل عليَّ... وكثير... وفلت من أقاصي الكون شهاب مدّ حبلاً طويلاً من الضوءِ لفّ الصحراء من أولها حتى آخرها...

ثم تنهّد الكون، وغمز في السماء نجم.

وحنا القمر على وحشتي.

لنمشِ.. قلت لفرند.

نهضت، أغواني نجم في الغيب، أتيت بكيسي، وعكازي، شحنت روحي بأمل غامض ومشينا...

راح يعاودني خيط الحنين إلى مطارح تلوح وتغيب في بالي، خلف ستارة النسيان.

... وأرى نفسي يوم قتل أخي مهدي، أسير مع أهلي، في مثل هذا الخلاء، وفي مثل هذا الليل، وأذكر أننا في ذلك اليوم، لم نعد إلى بيتنا، أو أننا عدنا وعلى عجل حملت أمي وحمل أبي ما خفّ حمله، تماماً مثل كيسي هذا، ومشينا ليلاً كاملاً، وعندما كنت أسأل أبي إلى أين نسير يابا، كان يقول لي على باب الله.

وأذكر أننا في فجر اليوم التالي، صعدنا في شاحنة عسكرية، لبس والدي لباساً عسكرياً... كذلك أمي تنكرت بثياب مماثلة، وطلب مني بإصرار أن لا أناديهما بأمي وأبي على الإطلاق، وهمس في أذني عندما صعدنا إلى الشاحنة أن لا أنسى ذلك. وإذا سألني أحد عن أهلي ووجهتي ومصدري، يتكفل سائق الشاحنة بالإجابة على أنهم وجدوني تائهاً في الطريق، وحملوني معهم ليتقصّوا عن أسرتي عند أقرب قرية أو عشيرة نمرُّ بها، أو لدى بعض الرعيان لاحتمال أن أكون ابناً لأحدهم، وتاه مني قطيعي... يعني كان عليّ أن أتظاهر بالخرس، وبعدم قدرتي على النطق والسمع.

كان تحذير والدي شديداً، فإذا افتضح أمرنا فسنلاقي مصير أخي مهدي...

التزمت الصمت. هكذا أذكر، كأني دخلت في حالة من النسيان، نسيان اسمي ونفسي وبلادي، وقد حدث أن توقفت الشاحنة مراراً عند حواجز عسكرية، وكان السائق يعرّف عني: «غريب وأخرس... أو مسكين تاه عن قطيعه... أبكم وأطرش لا يسمع»... وتواصل الشاحنة سيرها وأواصل صمتي.

عند أحد الحواجز، وجّه العسكري سؤاله مباشرة إليَّ، وسألني بحزم عن اسمي، فلا أدري إلا أني نطقت، وقلت له يوسف، وأنا لست يوسف، لم أقل له اسمي الحقيقي... غريب. لم أخطط لجوابي، ولم أتردد ثانية واحدة حين أدخل رأسه من نافذة الشاحنة، وسألني... لم أخف، لم أتردد.

- ما اسمك؟

- يوسف.

تمعن في وجهي، هي نظرات شكوك، هزّ برأسه، مردداً يوسف، ومكتفياً بذلك، لذت بالصمت، توقعت أن يسألني، كما كنا نُسأل عادة عن أهلي، عن والدي، عن عشيرتي... لكنه اكتفى أن أكون يوسف.

أذكر أنه هزّ برأسه وابتسم لي، عندما انطلقت الشاحنة، اختلط هدير المحرك، بضحكات أهلي والسائق. وهم يردّدون اسمي الجديد يوسف. كان ذلك الحاجز الأخير قبل أن تنحدر بنا الشاحنة نحو وادٍ، لنبيت ليلة في ضيافة أقرباء لأبي. منذ ذلك اليوم بدأت أسمائي

المستعارة. كانت هذه الصورة تلوح ثم تغيب، تظهر وتختفي، باهتة حيناً، وحيناً آخر، لكأني كنت أراها أمامي بكل تفاصيلها.

أذكر أننا قطعنا مسافات، ومررنا بقرى بيوتها من الطين، وخيم رعاة في السهول، وركبنا البغال في اليوم التالي، فراحت تقطع بنا وتنحدر أودية وتصعد جبالاً، وتطقطق حوافرها على حصى تلك الدروب، وبرفقتنا دوماً أحد، يسلمنا لأحد في قرية، أو عند منحدر.

وقطعنا غابات، وبتنا في كهوف. وكان حذر أهلي يخف كلما طوينا جبلاً، لكأن الجبال درع واقية تحمي ظهر أبي من الطعن أو الغدر. كنت أتأرجح خلفه على البغل كصرة ثياب، وأتشبث بوسطه عندما تندفع البغال في الدروب صعوداً في وعر صخري، أو تتعثر عند انحدارها نحو وادٍ كثيف شجره وفواح... هذه غابات صنوبر، وهذا شجر اللزاب، وهذا سرو وهذا عفص أو سنديان، كان يعلمني أسماء الشجر في تلك الهجرة الغامضة، أوضح ما فيها شجرها، وحسرات أمي، حسرات محمومة تتصاعد نحو السماء...

كنت أسمع لهجات لا أعرفها، عندما كنا نبيت عند بعض الرعيان، أو في بيوت لا تشبه بيوتنا في وادي الدموع، ونمرّ في غابات تبدو لا نهاية لها، يعرف سالكها فقط، من تمرّس في التخفي، أو في التهريب، ولكن، دائماً كانت تلوح بعدها قمم جبال وسفوح مأهولة ببيوت متناثرة.

هذي تلة سليمان.

أشار والدي بسبّابته نحو قرية قابعة على رأس تل، ومنه انحدارات نحو أودية...

هذا وطننا الثاني.. هنا سنكمل ما بقي من العمر... لم يكمل والدي هنا من عمره إلا القليل، كذلك أنا، غادرته في العشرينات من عمري.

لم أفهم تماماً مقصد أبي آنذاك، فهمت أننا سنقيم هناك.

لاحت تلة سليمان دفعة واحدة في بالي. لكأن ستارة انزاحت عن مشهد، أو لكأن يداً كونية سلطت عليها ضوءاً هائلاً، كشفها كاملة في عتمة ذاكرتي.

يوم أشرفت عليها مع أهلي، كان ذلك مع بدايات الصبح، وقد بدأت الشمس بإضاءة قمم تتدرج في ارتفاعها، كأن الله يعزف الضوء عزفاً على تلك السلسلة من قمم الجبال، التي أذكرها سبع، والثامنة هي تلة سليمان، الأقل ارتفاعاً من أخواتها. وقف والدي على رأس الجبل المقابل، جبل البياض، يفصل بيننا وبينها سهل... بدأت الشمس تسلط بقعاً من الضوء بدءاً من القمة الأعلى وتدريجاً نحو القمم الأخرى، لكأن لها صاحباً يتفقدها واحدة تلو الأخرى بتسليط كشاف من الضوء عليها، قبل أن يفلشه كاملاً لتبدأ مهرجانها الإلهي، حيث تتصاعد من قاع الأودية أبخرة، وتهب من شجرها طيور، ومن سفوحها الكائنات النهارية.

هذا وطننا الثاني، وتدحرجنا في السهل، لنصعد بعده تلة سليمان... وكان هناك الذي كان.

كانت هذه الصورة تفتق نوعاً من الشجن والحنين في قلبي، والتفت

ورائي... ليس ورائي، سوى الصحراء في أبديّتها المطلقة، فأصاب بالفراغ، ويثقل حملي.

تعبت، قلت لفرند، أو قلت لنفسي، أحياناً تكون الذكريات أكثر ثقلاً من جبل، وترخي على الكتفين حملها، لا على القلب فقط.

تلة سليمان، لم تحتضن فقط ذكرياتي، يحتضن ترابها تراب أهلي، ومريم...

آخر وجه ودعته هناك قبل سنين، يوم بدأت متاهتي الثانية، في طريق البياض، على رأس جبل البياض، المشرف على تلة سليمان، هو وجه أمي... كانت تجرّ غصناً من السنديان، لشتاء آخر من عمرها...

سمّوها أرملة الغريب.

تركت مريم على السفح قتيلة...

أمها عارية كانت تستحم.

هناك بدأ تدحرجي نحو هاوية الأيام...

استعرت من غناء أمي ذلك الموال، وغنيت:

دورات الرحى ع قلبي وفراقك طال

مين اللي سماك غريب؟

وهبَّ نسيم... وطيّر صوتي...

فطيّر قلبي الحنين.

شممت رائحة بيت أهلي العتيق في تلة سليمان، وطننا الثاني كما سمّاه أبي، بناه من حجر غشيم، على تلة في القرية اسمها تلة بنت

السلطان، تبدو كجواب لتلة سليمان أو بنت من بناته، جرداء، سوداء بركانية، تشرف على الجهات العارية، ومنها انحدار شديد نحو وادي الجن. كنت أتدحرج عليه وصبية أشقياء، جاؤوا من هفوات ليل آبائهم، ونستحم في «الجبيط»، بركة كوّنها سقوط الماء وانحداره من فجوات الصخور العالية، كان شلالاً هائل الهدير في آذار، ونحيلاً شحيحاً في الصيف، لكن سقوطه على أجسادنا العارية كالسياط، يلسع لسعاً. لكنه بالتأكيد أكثر رحمة وإنسانية بما لا يقاس من سياط أولئك الأوغاد.

هبَّ النسيم أكثر، شممت رائحة صنوبرية! هي محض خيال. لكني شممتها، انتشيت لعطر هبّ في بالي، فخف جسدي، وارتعشت من لسعة النسيم، ذكرتني بلسعة ماء الشلال.

شعرت ببريق في عيني، لكأني رأيت ما لم أره في الواقع...

رأيت مريم. وقلت:

سلام لمن علمني فك عروة الحرف لأزرّر قميص الحرير لأول أنثى تعرّت أمامي في الحصيد، كنا نرعى المواشي، على تمام الضحى.

هي مريم. هكذا سمّاها أبوها، قاتل والدي.

هبّ النسيم مشبعاً بالجوري...

قلت لها أريني نهديك يا مريم، وأعطيك رماناً من حقل أبي.

احمرّت مريم وقالت لي عيب، فرجوتها: إنني أشتهي أن أرى نهديك يا مريم. فقالت لي أنت أزعر بلكي حدا شافنا. وخلسة فكت زراً في أعلى القميص.

شعرت بدبيب نمل يسعى على سلسلة ظهري، وارتعش قلبي وراح يخفق.

انحنت كالقوس فانهمر شعرها شلالاً وغطى وجهها، أزحت خصلة منه بيدي، فبرقت عينها المذبوحة، ولا أدري كيف عبثت يدي، فعضتني، عضت أطراف أصابعي، وتمددت على القش كقطة مغناج.

أعطيك كل حقل الرمان يا مريم، دعيني أشم عطر النهدين، حيث يفوح الجوري.

من علّمك وضع الورد بين النهدين، أيتها الشقية.

«أمي»: قالت وتنهدت، فتنهد رمانها.

واحترقتُ...

كان الضحى عالياً، وسهل القمح مديداً، والكائنات الضحوية في انشغالها، قوافل النمل تجرُّ إلى مخابئها حبات الحنطة، وعصافير أيلول تعالج ثمار التين المعسل، وأسراب الطيور المهاجرة تعبر الفضاء نحو الشرق، والجدايا العنيدة تمد أعناقها نحو أطراف غصون شجر السنديان في السفح...

أريني الوردي يا مريم.

تململت على القش، وقال لي: منين بتجيب هالكلام... عيب.

اختلطت رائحة الشهوات برائحة الحصيد والأعشاب اليابسة، احترقت أكثر حين بان الوردي فواحاً ندياً.

مرّرت عليه أصابع هذياني، فعضت وجهي خفيفاً، وتدحرجنا على

الحصيد حتى أول المساء، نبهنا غناء الرعاة، وأصوات الفلول.

هبّ النسيم...

هبّ عطر مريم، لكأن الكثيب المتثائب تحت ضوء القمر ذكرني بجسد مريم أنثاي الأولى:

صنعت، في سنواتي لاحقاً، من ارتعاشتها تميمة تحميني من الفقدان. وكنت كلما مررت بحقل قمح أراني أشم رائحة أنثاي، وهي ممددة كالمنام على ضحى السهل. أذكر أعطيتها رماناً وأطعمتني كثيراً من رمانها، حتى تمنيت لو بقيت راعياً أبدياً تمر المواسم دوني، أدنو حذراً من شفتيها ثم خدراً ملتاعاً...

يا لشقائي.

سمّاها أبوها مريم، ودسّت أمها السم في زادها يوم افتضح سر حملها.

ماتت على زندي في موسم آخر.

أحرقتُ دار أهلها وهربت.

كنت راكضاً في طريق البياض، تاركاً خلفي مريم قتيلة في السهل، فرأيت أمي تجرُّ غصناً من شجر يابس وتغني للغريب، لأبي...

قلت لها: أحرقت بيت أهل مريم... كان الدخان يتصاعد من فتحة موقدهم، ومن النوافذ وكوى الجدران، والنسوة يولولن ويأتين بجرار الماء لإخماد الحريق. ولكن النار أجيجة كما حقدي، تلتهم خشب السقف، وصناديق الغلال، والتبن، لا يخمدها إلا طوفان نوح.

صرخت أمي: يا ويلي يا خراب البيت. قلت لها اتبعيني. لكنها للتو سقطت أرضاً من وهن الرعب، وراحت تنثر التراب على وجهها وتبكي، مثلما فعلت يوم مقتل أخي مهدي...

مثلما فعلت يوم مقتل والدي في بستان الرمان.

تركتها. كان ينبغي أن أتركها وهي تصرخ وتقول: مين بقي لي يا ربي...

التفت خلفي، رأيتها في ذروة الفجيعة، لكنها لم تنس أن تحمّلني دعاءً. طلبت من صاحب المقام الأعلى أن يرأف بي. وتابعت نواح الفجيعة.

لم أر وجهها منذ ذلك الزمان.

لم يرأف بي أحد.

لاحقتني اللعنة مثل أخي ومثل أبي، لكنني لم أُقتل بعد نهائياً، قتلوا بي عمري وشيئاً عميقاً في روحي في سنوات السجن.

في ذلك اليوم، كانت أم مريم تستحم حين فتحت بابها وأصدر صريراً موجعاً.. شاهدتني، ضمت نهديها براحيتها، واعتصرت فخذيها.

بياضها زائغ في غلاف بخار الماء.. امتلاؤها النضر أثار بي غريزة غامضة، ذهول عينيها الخضراوين، انفراج شفتيها، ارتباكات جسدها النابض بالشهوة، محاولتها الفاشلة في النطق، أو بالصراخ ربما، أشياء زادت من إثارتي.

لا أحد في البيت سواها...

سألتها:

أنت سمّمت لمريم؟ ارتعش صوتي، أريدها وأريد قتلها... هكذا ظننت.

لكأنها أصيبت بالخرس، ولوّحت برأسها فتناثر الماء على وجهي. اقتربت منها أكثر وكرّرت: أنت قتلت مريم؟ لكأنها نسيت أنها عارية، نهضت عن كرسي الاغتسال، في العتبة، حيث تجمعت حين أصدر الباب صريره، بان عريها كاملاً، شهياً ملتاعاً وراحت تهذي... تقول كلاماً لا معنى له، تبكي وتلوّح برأسها فيتناثر الماء المشبع برائحة الغار والياسمين على وجهي.

هي مريم. لكأنها مريم لكنها في وداع الثلاثينات... فتحت ذراعيها وضمتني بعنف، فسقطت على حصير القش، أطبقت بفمها على عنقي، وبدأت تلهث كلبوة جائعة.

خفت. حاولت الإفلات والهرب، فخدّرتني بلسانها حين بدأت تداعب شهوتي، عنقي وشفتي، عرتني من ثياب، بدأت تمرر لسانها على حلمتي صدري وعلى بطني ثم أطبقت على عضوي، وعضته. صرخت... ظننت أنها ستقطعه بأسنانها، لكنها محت ظنوني باجتياحاتها...

حاولت الإفلات مراراً، لكنها كانت تلجأ إلى تخديري بلسانها حين تدخله في فمي، لكأن في ريقها مخدّراً.. إلى أن استسلمت لها. لبوة هائجة.. وجائعة وأكلتني.. تركتني ممدداً مذهولاً... حملت من صندوق ثيابها فستان عرسها، ارتدته، جاءت بمشط من العظم العاجي اللون، طلبت مني أن أسرح شعرها. يا إلهي: مجنونة؟؟

كانت تتلفت وراءها، تمسكني من رأسي، وتدخل لسانها وتبخ ريقها في فمي فأزوغ، أصبح خدراً.

كل ما فيها مريم، شعرها الأسود الهائل الكثافة، نهداها، انزلاق الخصر نحو الوركين وقامتها وانتفاخة بطنها المكور.

صرت أسرّح شعرها، تمسك بيدي الثانية، وتقودها كالعمياء إلى ثدييها.

لا أعرف حتى الآن ما الذي جعلني في ذلك الجنون... جاءت

بمسند محشو بالخرق والصوف، جلست عليه، رفعت فستانها بكثير من الإثارة والإغراء عن ساقيها، بدأ يظهر شيئاً فشيئاً بياض فخذيها، وبدأ قلبي يرتجف، إلى أن ظهر ذلك الشيء الأرجواني الرطب، كان ينفرج وينقبض...

كنت أمامها جاثياً مذهولاً، مدّت يديها، أمسكت بي وشدتني، فاعتليتها. ودخلت، كما يدخل السارق بحذر وعلى مهل، وبصمت، سمعت صوت الولوج، غرست أصابعها في سلسلة ظهري، ثبّتتني فوقها، صارت تعلو وتنخفض، وتئن أنيناً موجعاً شهوانياً، هبّت عاصفة في الخارج من عواصف أيلول التي تعرّي الشجر... أصدر الباب صريراً خفيفاً، وعزّ خوفي.

ارتعبت. إنه الباب قالت، لا تخف، لم يبق أحد حياً هنا في هذا الحي.

حين بدأت بالصعود إلى النشوة، ازداد إصرارها على التشبث بي، ثم تحوّل أنينها إلى بكاء مرير فجائعي، وحين وصلت الذروة، صرخت بوجع آخ.. آخ.. يا... ثم عوت كإناث الذئاب الجريحة، ارتميت قربها. وقفت وتقدمت نحو الباب تتلوى، ثم انحنت لكأنها تريد التقاط حاجة من أرض العتبة، رفع هبوب العاصفة فستانها فارتمى على ظهرها، تمسكت بعارضتي الباب، بان ظهرها أملسَ منزلقاً، نادتني أن أقترب لأساعدها، اقتربت. قالت لي: ساعدني على الوقوف، مددت يدي نحو صدرها، تمسكت بي وأدخلتني ثانية... وصارت تتلوى

أمامي، وأمامها من الباب يمتد السهل حتى سفوح جبال البياض، وسلسلة أخرى نحو الشمال سود بركانية تنتهي إلى انحدارات نحو الغموض الكوني. هناك تماماً في مواسم الريح، تبدأ مراسم جنائز الأبدية، وتصدح الأودية والكهوف بغنائها.

في صعودها إلى الذروة وصعودي، صرخت فتردّد عواؤها الجريح في وادي الجن وجاوبتها كائنات الكهوف...

ربما كل هذا كان سبب شعوري بإطلاق عوائي في حالات الضيق والتخلي.

ارتمت على مصطبة البيت تنتحب، مردّدة اسم مريم.

قلت لها سأحرق البيت... أجابت:

أحرقه وأحرقني... وصعد مزاجها المجنون، وراحت تصرخ، حاولت إسكاتها، أطبقت براحتي على فمها، فعضّتني. جرّتني ثانية إلى داخل البيت، أتت ببرميل الكاز، وأراقته على الحصير ومخازن التبن، أشعلت عود ثقاب ورمته على أول الحصير.

لم أقدّر ما كانت تفعله، لم أصدّق! ولكن ما إن بدأت ألسنة النار تمتد وتتلوى حتى اجتاحني الذعر، وتنبهت إلى الكارثة. حاولت أن أجرّها إلى الخارج، تشبثت بعمود البيت، أتتني قدرة نادرة، فحملتها وركضت حتى بستان رمان أبي. لا أعرف، ماذا عليَّ أن أفعل... ذهول أحالني إلى فراغ تام..

أحرقت بيتي. قالت...

أنا لم أحرق بيتك.

ولكني شعرت عندما رأيت النار تلتهم أحشاءه وتمتد ألسنتها من الكوى، شعرت بنشوة ما، أو هو شعور بالثأر لأبي، أو لمريم، ولكني لم أفعل. هي التي فعلت ذلك.

لمن كانت تثأر؟ هل تثأر بالنيابة عني؟

تركتها تنتحب في بستان الرمان، ومشيت...

صحوت..

صحوت من عاصفة هذا الذي عشته في تلة سليمان، عاصفة هبّت دفعة واحدة وحملتني إلى تلك الأيام.

وحين صحوت، لم أدرِ كم مرّ عليَّ من الوقت وأنا غارق في تلك الذكريات. وجدتني خدراً، ينز من جبيني عرق بارد، كعرق الحمّى... كانت الشمس ترسل من مخبئها في الشفق، رسائل وهج، تنبئ بعظيم نهار آخر، ليس فيه من رحمة أو إشفاق.

نظرت في ذلك الشفق الأغبر الجمري، بدا قوس الشمس ينبجس من الرمل كتلة جمر، يكشف عراء المكان بكل عدميته، حتى كدت أسمع هسيساً لبزوغها الخرافي.

ظننت أنني كنت أحلم بتلة سليمان، تلك القرية التي بدأت منها تدحرجي الثاني، بعد مدينة الجسر، وادي الدموع، عندما وجدت نفسي ممدداً على ظهري، يبدو أن نأيي في الذكريات، أناخ بدني، وأدخلني في النعاس.

كان فرند ممدداً قربي، ابتهج بصحوتي، بدأت أستعيد تشتت وعيي، وحضوري على صبح نهار جديد. هو حضور ناقص وملتبس،

ازداد ضموراً عندما وقفت، وعاينت جهات الله محاولاً تقدير المسافة التي تفصلني عن الهدف الذي جاءني وحده، هو تلة سليمان.

هكذا أصبح لي هدف أسعى إليه ومطرح قصد.

وتمنيت لو بقيت أهدافي مبهمة وغائمة وغير واضحة، أو أن الواضح فيها يبقى في حدود العثور على شجرة ظليلة، أو واحة نخيل، كأهلي القدماء... أو على صخرة كتلك التي وجدت نفسي ممدداً بالقرب منها.

صخرة حانية فوقي كجناح، لكأن يداً جاءت بها من سلسلة جبال الغربان، وزرعتها أثناء نومي، بالقرب منها مجموعة أخرى من الصخور، لها أشكال تشبه الكائنات التي أصيبت بالتحول، صخرة غزال، وأخرى طائر عملاق. وصخرة تشبه رجلاً مارداً مبتور اليد، يحمل في يده الباقية كرة. وصخرة تشبه قبة مسجد عتيق، وأخرى أنثى حانية على عريها، لكأنها أصنام آلهة قديمة، لبشر أصابهم الفناء، ورحلوا وتركوا خلفهم آلهتهم لتعثر واستحالة حملها.

هل يعودون إليها؟؟

أصبت بالقشعريرة، حين شاهدت واحدة منها تشبه الإنسان تماماً في حالة صراخه القصوى، يداه ممدودتان إلى الأمام كأنه يدفع عنه مصيبة أو عدواً، وقدماه وتدان مغروسان في الرمل، وقد لفّ جسده بجلد نمر...

يا إلهي...

صرت ألمس هذه الصخور لأتأكد من وجودها، من صلابتها، هي صخور بلون الرمل، صقيلة ناعم ملمسها، في بعض المواضع. صلبة، لا هشاشة فيها كما توقعت، حين حككت بظفري جسدها لأتبين حقيقتها... وبدا لي المكان صالحاً للسكن، لو توفّر الماء.

في غرابته ألفة، ونداء...

ما هذا؟ من جاء بهذه العجائب وزرعها في هذا الفراغ؟ أذكر شيئاً من هذا المشهد، في كتاب، أو في رحلة ما... ربما مررنا بها يوم شتاتنا من مدينة الجسر، وادي الدموع.

رغبت في العثور على أثر لكائن بشري، عبر هذا العالم الصخري الأليف والموحش في آن معاً.

أليف، لأني رأيت بإمكاني أن أحمي نفسي في ظلاله، أن أسند ظهري على بنيانه ومتانته...

وموحش، لأنه وحيد. هو تجسيد للعزلة، تجسيد صخري لمعنى العزلة والوحدة...

لا شك، حيّرتني هذه العائلة من الكائنات الصخرية، التي بدت لي كحمولة زائدة لإله الكون، رماها على عجل... وتابع لعبة الزمان...

هذا ما كنت أستأنس به، حين أتوصل إلى استخلاصات شاعرية... وأضحك من استخداماتي الوصفية.

هي تهيّؤات التيه...

على كل حال، لو بقيت الأمور في حدود العثور على أهداف من

هذا النوع، لكان أسهل عليَّ من الوصول إلى هدف أعرفه، إلى مكان يخصني، وكان شبه ممحوّ في ذاكرتي، غير ملحّ وإن عنّ ببالي أحياناً وجه، كوجه مريم، أو وجه أمي، أو وجه هدى، أو موطن ألفني وألفت فيه حكايتي في بداياتها، كان ذلك يبقى إشارات تذكرني بما كنته، ومضات تشبه حركة كشافات الضوء التي كانت في برج المراقبة، أو كتلك الأحزمة من نور الشمس الذي اخترق فجوات السجن، لأرى جثث رفاقي.

صارت تلك الأهداف التي كانت كبرى، كالعثور على شجرة أو صخرة، أو طائر يحمله كلبي، صغيرة، وفي خدمة الهدف الأسمى: الوصول، الوصول إلى تلة سليمان، وليس لي هناك سوى مقبرة أهلي.

وكنت حين سعيت، حين مشيت، لا أسعى للوصول إلى أي مكان... كنت لا أعرف إلى أين أسير وأصير...

بدت تلك الصخرة الجاثية هناك تشبهني، حين أصبت بواحدة من نوبات الهذيان... ورأيت ما رأيت قبل يوم.

ترى، هل هذه إشارات لما سأصير عليه؟

فجأة تحوّل انبثاق هذه الصخور من عدمية الصحراء، إلى تهديد صريح لوجودي. هل سأصاب بالتحول إلى صخرة في هذا الخلاء؟ وظننت أن من يمر هنا، قد يدخل في هذه التجربة، ويتحول. وما هذه الصخور إلا كائنات ضلت طريقها، وعبرت هذا المكان الملعون، فتحولت إلى جماد أبدي.

هذه حكاية روتها لي جدتي... أن مكاناً في الصحراء، إذا عبرته النفس، تتحول إلى حجر، وقصّت علي حكاية الرجل الذي تاه مرة ووجدوه بكامل صفاته، لكن ليس من لحم ودم، بل صخرة، وما استطاعوا حتى حمله، فتركوه للأنواء.

قلت:

هذه ترّهات. أي صخر؟ كل نفس هنا تتحول إلى وليمة سريعة للهباء وللجوارح.

لم تفلح هذه التطمينات التي استدعيتها من عقلي، في تخفيف ارتيابي.

نظرت إلى كلبي، لأشاركه مزاولة وجودي، فرأيته على غير وضع، واقفاً، متحفزاً. لا حراك فيه. لا حياة فيه. كلبي بكامل حضوره، ولكن بدا كأنه في حالة انقضاض أصيبت للتو بالتأبيد، كصورة، أو كمنحوتة... صنم كلب.

صرخت فرند...

لم يتحرك.

فرند...

سمعت بقايا صوتي ترتطم في أذني...

وغبت...

يا لهشاشتي... خراء... سئمت نفسي، شتمت هُزالي...

لم تدم طويلاً هلوساتي، وجدتني ثانية ممدداً، لكن هذه المرة على شاكلة المصلوب. كنت مصلوباً على عكازي، وجهي أو خدي على الرمل... وعكازي هو صليبي، في فمي حبات رمل، نعاس يشدني إلى الغور، إلى سبات عميق، ورغبة تشد جسدي إلى النهوض.

كان كلبي يشم وجهي ويصدر أصواتاً غريبة. صعد من أعماقي شعور، يشبه ذلك الذي انتابني يوم جاؤوا في الصبح، على الفجر، إلى بيت هدى في وادي أبو جميل في بيروت، وطرقوا الباب بعنف.

افتح يا كلب، افتحي يا شرموطة... افتح يا حيوان...

حملوني كخرقة، إلى صندوق سيارة، جروني على الدرج كذبيحة، كصرة ثياب بالية، تدحرجت. وضعوني في صندوق سيارة، وسارت طويلاً... طويلاً...

كان شعوري آنذاك مزيجاً من الخوف والترقب، وكانت رغبتي أن تُفتح لي فتحة، ثقب، لأرى الضوء، فقط لأرى الضوء.

... ولكن، لم أر الضوء على الإطلاق، إلى أن مرت سنوات، وفرغوا

روحي من أية رغبة.. ووجدتني في ذلك السجن اللعين وسط الصحراء.

انتابتني رغبة في أن أرى الضوء، رغم أني مكشوف للسماء... لكن إحساسي بالعتمة كان طاغياً. خفت من سهولة استسلامي للنوم، للعتمة... زائغ خوفي ما بين إدراكي لوجودي وعدمه، حاولت تأكيده، بالتغلب على وهني، بالمكابرة، وقلت يوم تمنيت الموت لم تمت، حين كان ذلك اللعين يفلق ظهرك بالسلك قاومت ولم تمت، انهض أيها الرجل، عيب أن يقتلك خوفك.

أي خوف، وممَّ أخاف؟؟

هذه نوبة من نوباتي، كنت أشعر بالراحة، عندما أبرهن لنفسي ما يمرّ بي، وتشتد عزيمتي.

وأسأل كلبي:

أين نحن يا فرند؟

ما هذه الصخور؟

من جاء بهذه الآلهة؟

هل جاءت لتبارك غيابي وصحوتي ووحدتي؟

انبعاثات وهج الشمس من الشفق، تذكّرني بسيخ النار الذي ترك هذا الندب في جبيني. مررت أصابعي على جبيني، كان رطباً، بارداً. أعرف هذه الحالات، كانت تصيبني عندما أغرق في كتابة قصائدي، أو عندما كنت أحاول وصف اليوم الذي حملوا فيه أخي مهدي إلى قفص الموت... وتركت أوراقي على طاولة عارية، في حجرة عارية،

في وادي أبو جميل في بيروت... وتكوّرت كسلحفاة في صندوق سيارة، أو حزمت كصرة. أعرف هذه الحالات، ولكني صرت أكثر هشاشة من احتمالها، ثقيلة، كثقل الذكريات.

ثقيلة... يا الله.. يا...

دوّى الصبح، ليلة خطفي.

وأسهم صراخي في دفع كرة النار من مخبئها.

فالتهب الشفق.

كنت لا أعرف إلى أين أسير، وأصير... قبل صحوتي،

قلت لنفسي، ولكلبي،

لنمشِ أيها الصديق.

هذه الصخور قد تحمي جسدي من سخط الشمس، لكنها لا تتكفل بي، لا تشفع بي، ليست آلهتي... أنا إله نفسي في هذا العدم.

اتبعني... أمرت كلبي.

وراقتني فكرة أن يكون لي تابع. أنا أمشي لأبلّغ رسالتي، أو حكايتي، أنا شفيع روحي... أو أحرقها، أو تحرقني... وهذا كلبي... كنت هكذا.. تأتيني دفعات دونكشوتية، لا مبرر لها، وأشعر باعتداد فظيع وبتحدّ، سرعان ما تتلاشى أمام الخصم، وخصمي هذه الصحراء التي لو اعتكر مزاجها لابتلعتني، وحوّلتني إلى هباء.

الزمن أشدّ الأعداء فتكاً.

لنمشِ، لعلنا نعثر على ظل آخر، قبل أن يبدأ السخط الكوني، ويعلن الله سعيره الدنيوي، وأنا لست بمخطئ، ولا بمارق أو قاتل أو سارق أو ظالم أو زان، حتى يقتص مني، وأعاقب في سجنيّ الصحراويّين، خلف جدران الإسمنت وأمامها، في هذا المدى اللامتناهي. ولا أعرف إذا

كان ذلك الحب الذي اشتعلت به مرتين، هو زنى.

ولا أظن أن الله يعاقب على الحب، مثلما يعاقب الجلاد على أفكار لا تروقه... أن يبتر الأعضاء، أو ينتزعها، كأنه ينتزع مسماراً صدئاً من لوح خشبي، أو يقطع غصناً من شجرة يابسة.

وكنت أعجب من نفسي ومن الآخرين، كيف لحطام بشري أن يحيا مجدداً، ويعيش، أو يفرخ، مثلما تفرّخ غصون الشجر بعد اجتثاثها؟!!

كنت أهرب وألهو بمشهد، أو بفكرة عندما تعاودني تلك الصور، لكنها تغلبني، كأنها تغتصب وعيي وتمْثُل أمامي.

كان فرند دالقاً لسانه، يجفل بين الحين والآخر من هلوساتي، أو ربما يعجب مني، يعجب من رجل يحدث نفسه!!

كلما رأيت لسانه، أتذكر قصة نعيم السايب، الراعي الذي قطعوا له لسانه.

لقد ضُبط مرة يغني من شعر فرحان داوود خلف قطيعه:

«مين أمنك ما تخونو ولو كنت خوان».

كان نعيم السايب لا يعرف أن ترداد هذا الشعر أو غناءه ممنوع، وأن كاتبه كان يقصد به هجاء القائد، وقد دفع خصيتيه ثمناً لذلك، وما بقي من حياته قضاه في المؤبد.

كان يغني هذا الشعر كأي موال، ليؤنس وحشته ويسلي قطيعه في الفلوات.

ولسوء حظه مرت به دورية على غياب ذات يوم، وهو عائد

إلى المبيت قرب مدينة الجسر، وادي الدموع، يعبر بقطيعه طريق الإسفلت، توقف بالقرب منه جيب عسكري محدثاً جلبة وذعراً شتّتا القطيع، هاش كلبه، فأطلقوا عليه الرصاص، صرخ به الرقيب من نافذة الجيب: اركع، اركع.

ركع، رمى عصاه ورفع يديه عالياً...

ـ تشتم القائد يا حقير؟

لم يعثر نعيم السايب على أي إجابة أو أي وسيلة للدفاع. أصيب بحالة ذهول، وصمت.

ـ أجب يا حيوان...

لم يجب شيئاً، حاول النطق لكن الكلام غار عميقاً في جوفه، عبّر بيديه المرفوعتين متعجباً من هذه التهمة التي يعرف عقابها في حقيقة نفسه، تهمة قاتلة!! حاول أن يقسم بالله إنه لم يفعل.. لكن الكلام انسحق من جوفه.

ـ شيلوه، صرخ الرقيب، سأقطع لسانك وأرميه للكلاب.

حملوه إلى الجيب، رموه كتلة من هشاشة بشرية في الخلف، تكوم على نفسه يرد اللكمات، و... انطلق الجيب تاركاً خلفه خيطاً من الدخان وآخر من النحيب.

بعد أيام، خرج نعيم من قسم التحقيق، مقطوع اللسان. رموه في الساحة، يغرغر... ومنعوا أحداً أن يتقدم نحوه، ظل ينزف حتى مات.

قالوا: قطع لسان السايب يراد به عبرة لكل من تراوده نفسه ولو بسره، استعادة بيت من شعر فرحان داوود.

لكأنهم أرادوا بذلك أن يمحوا من الذاكرة هذه القصيدة التي شاعت أكثر بعد قصة السايب، تهامس الناس عن سبب قطع لسانه، ردّدوا سراً أنه كان يغني:

من أمّنك ما تخونو ولو كنت خوان.

شاعت الحكاية ووصلت حتى ما بعد حدود البلاد، وصارت تنسب للسايب بعد سنين. وأخذت أشكالاً أخرى، حسب اللهجات التي تناقلتها...

ليت السايب كان أخرسَ، قبل ذلك، لكان وفّر على حملي حملاً، وخفف من أوجاعي. قلت ذلك بصوت عال.

أو أن هواء الحسرة دفعها من أعماقي...

نبح فرند.

بدأت شمس الضحى تسكب حممها على رأسي، مددت يدي إلى كيسي وأخرجت منه «تربون» السدر. رفعته فوق رأسي المائل وتلك خصلة ترسخت في المهانات، زادها عرجي إصراراً، من أجل التوازن.

شفت يا فرند، جئت بهذا الغصن الصغير من السدر ذكرى، وإذا به صار حاجة، وما خططت لوظيفة له، عندما كسرته من غصنه الأم، كان فعلي مجانياً، أو أحببت أن أحمله للود فقط.

هناك حكمة تقول: الحاجة أم الاختراع.. ولكنه اختراع خرائي.

لم أكتشف شيئاً، ولم أخترع شيئاً. اكتشفت وحدتي، لا أحد يعرف ما هي الوحدة بمعناها العملي، سوى من عبر هذا المكان.. وذلك الشعور الذي كان ينتابني في أيام بيروت، عن إحساسي بالوحدة أو الوحشة، هو ترف، أو نوع من نزق شاعري، لكتابة قصائد الوحشة، أو استجداء عاطفة أنثوية. أشياء في غاية السخف، أي وحشة تلك، أمام هذا التخلي؟؟

كنت أتخيّل وحشتي. الآن أعيشها...

كنت أتخيّل أني في التخلي المطلق، وأن غرفتي في وادي أبو جميل في بيروت أضيق من زنزانة. وتيهي أبعد من صحراء، ثم بعد قليل أتدرج إلى مقهى في الحمراء وأرتشف القهوة مع شلة من الأصدقاء... أنتظر هدى على باب البناية، أو على سفرة الدرج.. كم كان رحباً وأليفاً وحميماً وممطراً ذلك العالم.

ومما اكتشفت:

اكتشفت نعمة النسيان، وتمنيت لو بقيت قابعاً في ذلك النسيان. فتلك الصور التي تعصف بذاكرتي كاعتكار في مزاج الصحراء، تروح وتجيء، تغيب ثم تعود، تعذبني... أكثر من نسيانها... النسيان لا يعذب، الذي يعذب ما نتذكره، وليس الذي ننساه.

أحياناً نتسلى بالذكريات، نحوّلها سلوتنا في حالات السأم، ونعلم أنها تعذبنا.

أن أتذكر كيف ذلك اللعين يتسلى بروحي وبجسدي، يغرس

سيجارته في لحمي، وأشم رائحة احتراق لحمي، أو يمرر سيخ النار على جبيني، وأحاول أن أمحو الصورة بصورة أخر ى عن طفولتي محمّلاً خلف والدي كصرة ثياب، والبغال تصعد بنا جبالاً أو تنحدر أودية، أو أتذكر مريم... يا إلهي، هذا أكثر ألماً من لسعة السيخ، ربما لافتقاده إلى الأبد. وعدم تكراره يرخي على النفس غيوماً من الشجن.

إن أمطرت، تمطر دمعاً حاراً.

أغيب في عالم أسدل عليه الزمان ستارة، تحركها نسائم الرغبات، ثم أعود وأنشط قدراتي التحليلية، وبواعث التهكمات، فرند يماشيني، دالقاً لسانه... يتوقف أحياناً، يرفع كمرصد أذنيه، ثم يرخيهما، تعبيراً عن خيبة...

لا شيء.

لا شيء هنا يا فرند.

لو كان الشجر يمشي لمشينا ثلاثة: أنا وأنت وشجرة السدر.

ما كنت أظن، أو أتوقع، أني سأحمل هذا «التربون» وأمشي به ليظلل رأسي.

بدا لي ذلك المشهد عبثياً، رجل يحمل غصن شجرة ويحمل رجله.

كلانا غصن مقطوع من شجرة، كلانا ناقص، وأبدو لنفسي أكثر غرابة، عندما تختلط عليَّ أسئلتي، وتنبجس من النسيان صور الماضي، حتى كنت أظن أن كل ما يحدث أو ما أتذكره هو مجرد حلم وليس حقيقة، وأني لست أنا، بل أنا شخص آخر يحكي لأحفاده حكاية رجل هو أنا.

راودني هذا الشك وأنا ساهم في السراب.

توقفت، تفقدت نفسي، لمست وجهي ولحيتي وقدميَّ وجرحي... جرحي خدر يؤلمني عندما أضغط عليه بسبابتي.

في المدى المنظور أمامي، في مجال رؤيتي، لاح شيء ما. لا ليس سراباً، فالسراب صار ثالثنا السبّاق دائماً، وعقلي يتدبر أمر تصنيفه وتسميته.

شيء بدا، ناتئاً من الجوف ومخترقاً للفضاء، مالئاً مساحة من الفراغ، يشبه جناح طائرة... نظرت إلى فرند متفحصاً حاسته اللاقطة للكائنات، بدا محايداً، سألته:

هل تشتم رائحة ما يا فرند؟

نظر إليَّ لكن ليس بغاية الجواب، بل لأنه تعوّد سماع اسمه.

الشيء الذي يلوح بعيداً، لا شك أنه عملاق، وإلا فإنه يستحيل أن أراه في ذلك الأفق... ولو كنت مسّاحاً لاستطعت تقدير المسافة، ولكن هذه من المدارك التي أجهلها، وإن كنت موهوباً بعض الشيء بالقياسات، وتقدير المسافات وفق المنظور الرعوي.

كان ذلك الشيء يلوح خلف السراب مثل طائر أسطوري، توقفت.. وواصلت النظر والتأمل. قدّرت أني سأصله خلال نصف يوم.

توقف فرند، نظر نحوي كعادته دالقاً لسانه، رأيت في عينيه حزناً، هو موجود في الأساس، لكني لم أتبيّنه بهذا الوضوح.

أخرجت من كيسي بعض كسرات الخبز، تقاسمناها، شربت ماءً، وسكبت له في علبته، وباقتصاد شديد، كنت أعلم أن زادي ومائي في

حالة تناقص متزايد، ليس من عملية الاستهلاك وحسب، بل من حملي الذي خفّ.

التفت ورائي، كعادتي، رأيت جمهرة الصخور، مثل صحبة لي تشيّعني.. بعدما فشلت في ثنيي عن متابعة سيري، زائغة، في أبخرة السراب، تتمايل، لكأنها في حالة تشاور حول مصيري.. واعترتني الريبة مجدداً، تُرى هل هي كائنات تحولت إلى جماد بفعل غضب؟؟ أم لقلة التدبير كما تقول الحكاية. في كل الأحوال لم يكن وجودها عادياً أو مألوفاً. هو وجود محرّض على التخيل، زادته غرابة جمهرة أخرى من الصخور أقل تماسكاً واكتظاظاً. قامات متناثرة متباعدة، لكأنها شراذم فلول ما، حاولت الهرب، أو تخلفت عن اللحاق بالجمهرة الأعم. هي أيضاً بدت لي كآلهة فقدت أدوارها بعد شتات المريدين...

وأغواني ثنائي منها في حالة عناق، كأنهما حبيبان التقيا بعد فراق وتيه وتعانقا حتى الالتحام الأبدي لفرط الشوق. عنّ ببالي أن أستريح في ظلهما، وأسند رأسي إليهما، لعلهما يشيان لي بسر أو بخاطرة، أو بفكرة، أو أن أغفو في مقامهما وأحلم حلماً أتابعه في يقظتي...

ولكن حين اقتربت أكثر منهما ضاع الشكل وبقيت الفكرة...

تلاشت رغبتي.

وزاولت عرجي، وافتكرت:

الزمن أشد الأعداء فتكاً.

بدا لي السجن في ذلك النهار الجحيمي، أكثر رحمةً، وراودتني مرات فكرة العودة إليه، خاصة عندما سقطت الشمس عمودياً على رأسي كسيخ النار، فانحنى ظهري على هزالي، لكأن الحرارة لوته، فانطويت، وأحسست أن دماغي بدأ يسيح.

صار غصن السدر يطقطق لكأنه عيدان رُميت في موقد مستعر. تناولت من كيس أسمالي عباءة مهترئة، كنت أستخدمها، أقص منها خرقاً ولفافات لساقي، رفعتها على رأس الغصن، بدوت في ذلك المشهد كجندي رافعاً راية الاستسلام، بعد وقوعه في كمين. وكان كمين أو فخ ذلك اليوم من تدبير كوني.

لكأن الشمس تضاعفت، وصارت شمسين، واشتعالها أصبح واطئاً أكثر من ذي قبل.

ورأيت ما رأيت...

... رأيت نفسي من موقع مرتفع، صرت أتفرج على حالي، لكأني عين ثالثة تراني من السماوات. سخرت من بؤسي. كان منظري يثير المرارة والضحك أكثر من الإشفاق.

هذا، كان يحدث لي عندما كان يهوي عليَّ «الضبع» بسياطه

ويفلق لحم ظهري، وأدخل في ملكوت الغياب. كنت أرى جسدي من عل، وأراه ينهال عليّ، ويرغو في فمه زبد يتناثر تحت السلك المعدني. ويختلط أنيني بوحيح السلك وهو يصفع الهواء قبل ارتطامه بجسدي.

نعم.

رأيت نفسي من موقع مرتفع أجرّ ساقي، رافعاً رايتي ويتبعني كلبي.

وصارت نفسي تنادي عليَّ بالتجالد والصبر، وعدم الاستسلام. يبدو أنني كنت في موقع البرزخ الفاصل بين حالتين، حالة الحضور الشقي، وحالة الغياب المطمئن. وهذا يعني أني لم أكن فاقداً لوعيي بالكامل، ما يجعل الخيال يتدبر أمر الصورة، أو الحالة التي أنا فيها.

وتضنيني هذه المشاعر، واختلاط الواقع بالرؤى وحضوري بغيابي، ووعيي بلا وعيي...

صوت عميق صرخ بي، انهض، لا تنكسر.

قلت لنفسي، هي الرغبة في النجاة وغريزة البقاء. وارتميت عند واحد من تلك الكائنات الصخرية. اعترتني قشعريرة عندما تخيلت نفسي ميتاً ووحيداً في هذه الصحراء، تنتظر أفولي جوارح الطيور لتقتات مني.

هل تقبل يا فرند أن تبقى وحيداً. وماذا ستفعل لو غلبني يأسي، وهويت نحو قاع الموت، ماذا سيحل بك؟ وماذا ستفعل بي؟ ستجرني

من ساقي لتنقذني، أم يغلبك الجوع وتمزق من لحمي. ستأكلني أيها الوغد، أم ستطلق نباحاً حزيناً معلناً موتي للأبدية وتركض في هذا العراء، وتلاقي مصيراً مشابهاً؟؟

بودي أن أخبرك قصة حب يا فرند، ولكن لا قدرة لي بعد على الكلام.

هل صرت تحبني؟

نظر إليَّ فرند بعينين زائغتين، ونبح نباحاً تودديأ. كنت أصف نباحه في كل مرة حسب رغبتي، ولا أعلم إذا كان نباحه في تلك اللحظة يعبّر عن تودّده نحوي.

لقد أصبح كلانا بحاجة للآخر، وما يجمعنا هو توازن الحاجة.

بدا لي أن مكوثي طويلاً قرب هذه الصخرة التي لا ظل لها يكفي لحمايتي، سيجعلني أستسلم لخدر الغياب، نهضت.

كان فرند يحس بي في تلك اللحظة أني خسرت مقداراً من قدرتي واحتمالي، وأن جسدي بدأ يخون رغبتي، أمامي بدون تردّد!! كان فرند يسبقني أحياناً بأمتار، ثم يقف ويلتفت نحوي، وينتظرني، وأحياناً يعود إلي، ويلتقطني بعضة خفيفة من بنطالي، ويشدني إلى الأمام. وينبح عليَّ، ينبح...

لكأنه يحذرني من الاستسلام أو السقوط.

ويعاودني أن أرى نفسي من موقع مرتفع، ضيئلاً، شحيحاً، هزيلاً، بطيء الخطوة، رافعاً راية استسلامي. كانت يدي تصاب بالخدر،

أريحها قليلاً كي يخف تنميلها، وأعيد رفع الخرقة لتحمي رأسي ودماغي من التلف والغليان في ذلك الجحيم...

لم يعد بمقدوري تبيان ذلك الجسم الغريب، لفرط الغشاوة التي بدأت تصيب عينيَّ. توقفت قرب صخرة أخرى أقل بؤساً مني، وأقل وحشة، تشبه امرأة عجوزاً حانية بدون عكاز، احتميت تحت طيتها. شربت من مائي، بدا كالبول.. مضغت حبة من التمر. وتركت النواة في فمي.

ترك النواة في الفم وامتصاصها على مهل يسقي الروح.

هي حكمة قديمة..

حكمة الصحراء...

وزاولت عرجي...

على بعد أمتار قليلة مني، بان هيكل عظمي في وضعية الاستلقاء على الظهر، يداه ممدودتان على آخرهما كالصليب، ووجهه نحو السماء، تماماً، لا إمالة فيه. بدا ضاحكاً من هذا العدم المفرط، وهازئاً من سعيي، ومن منظري الموحي بفنائه القادم لا محالة.

يا إلهي، لكأنه تجسيد فاقع الدلالة لما سأكونه في هذا الهباء، ولو بعد حين.

تُرى من يكون صاحب هذا الهيكل؟ هل هو واحد من الذين هربوا من السجن، أم لرجل ما ضل طريقه مثلي؟ وكيف لي تبيان ملامحه، وجهه، هويته؟

من يكون هذا الرميم؟

شاهده فرند مثلي، أشاح بنظره عنه ولاذ بي، «ناعصاً» مقلداً مواء هرٍّ جائع...

علا منسوب الوحشة...

على كل حال أيها الرفيق، لم تكن نهاية السجن أكثر رحمة من نهايتك، التي لا أعرف كيف بدأت خطوتك الأخيرة نحوها، قبل أن تنهار، وتجثو، وتتمدد على ظهرك، وتسلم الروح لخالقها... ولا أعرف

بماذا فكرت، أو تذكرت، أ و لمن اشتقت، وماذا رأيت؟ لا أعرف.

لا أعرف من أين أتيت وإلى أين كنت تنوي الوصول. من ودّعك؟ من كان ينتظرك؟ من شاهدك للمرة الأخيرة، غير هذه السماء المشتعلة، أو ليلها البارد...؟؟

ولو كنت تسمع الآن لرويت لك عن هول ذلك الليل، حين قصف السجن بأطنان الحمم، حيث لم ينجُ منه أحدٌ سواي، لسوء حظي، نجوت وهذا الكلب. هذا كلب السجان، صار كلبي. تخيل الأدوار في الدنيا، كيف تتبدل...

لا أعرف كم تعذبت قبل هذا النوم الحطام، وكم عطشت، وماذا رأيت في خلايا عقلك وهو يستقبل الأبدية.

علا أكثر منسوب الوحشة.

... على بعد خطوات منه وجدت كتاباً مهترئاً، تقدمت نحوه، انحنيت والتقطته، كان مهترئاً وبالياً. كلما قلبت صفحة منه تحوّلت إلى غبار.

الكتب مثل الناس، كلما انقلبت صفحة من حكاياتهم، تحولت إلى غبار.

لكني بعد بضع صفحات مصابة بالبلاء الكلي قرأت: إذا ضاقت بك الدّنيا فسرْ، وتبينت أن هذا الكتاب يخص أحد المتصوفة، النفري، ما الذي أوصل هذا الكتاب إلى هنا؟ هل كان رفيق التيه في سعي هذا الإنسان؟

لا أذكر أحداً من رفاق السجن، كان يقرأ كتباً من هذا النوع. ازدادت قراءة المصاحف، في الآونة الأخيرة والتفاسير، وسير الأنبياء وما شابه ذلك.

لكني عرفت رجلاً اسمه بلال الدمشقي، كان يروي أحياناً عن حالات تنتابه، وعن رحلات يقوم بها خارج السجن، دون أن يراه أحد، كان ذلك في بدايات قدومي، ثم مرت سنوات لم أعد أرى فيها بلال. كان البعض يقول: إنهم أطلقوا سراحه، وإن آمر السجن خيّره بين البقاء في السجن، أو الخروج إلى حيث يشاء، بشرط أن يمشي وحيداً...

كان بلال الدمشقي يقضي معظم أوقاته مغمض العينين، في جلسة اليوغا. وحين يبدأ بحالة العبور والكشف، كما كان يسمّيها، يرتجف كما لو أنه أصيب بصاعق من الكهرباء. ترتخي عضلات وجهه، وترتسم على محيّاه ابتسامة رضى واطمئنان، ويبدو خفيفاً كأنه في حالة طيران، في سلام كلي.

سألته مرة، ماذا ترى يا بلال حين تغمض العينين.

كان يردد رأيته رأيته ورأيتني فيه...

ومن هو؟

لا يجيب. يبتسم، ويشرب ماءً، ويأكل حبة تمر يلوكها على مهل. كان نباتياً لكنه لم يعلن ذلك أمام أحد، خوفاً من ذلك اللعين الذي رآه مرة يبكي، عندما شاهده على الشرفة يذبح الحمام... يُعدّه لمائدة شهواته المرضية.

كنت أقرب إلى الإيمان بما يصيب بلال من حالات تجلٍّ.

مرة قال لي إنه رآني في منامه، أعبر الصحراء بمفردي وأغني، ويتبعني صاحبٌ ممحوةٌ ملامحه، ليؤنس وحشتي.

وعندما سألته: هل وصلت؟

قال لي: صحوت على صوت ذلك البغل يجعر في الممرات، انهضوا يا بقر... هو «الضبع»... وتركتك تمشي في المنام...

«رأيته رأيته ورأيتني فيه»

أتاني صوته، من حيث هو ممدّد، هيكلاً نخراً، فتك به الزمن ببطء...

لا أصدق ما سمعته.

إنها تهيّؤات. هكذا قلت لنفسي، عارض من عوارض الحمّى والغياب. أو هو صدى لصوته ينبجس من أعماقي...

لكن الصوت ثانية تردد. رأيته رأيته ورأيتني فيه.

يا إلهي، هل ينطق الرميم؟ تخيلت الصوت يخرج من بين فكيه الصارخين نحو الله. وشاهدت أمامي في أبخرة السراب بلال الدمشقي بقامته المنحنية، بنحوله الأقرب إلى غصن يابس وبقفطانه المغربي الذي كان يلبسه، بربطة رأسه الزرقاء. لم أر وجهه، رأيته يمشي أمامي ويومئ إليّ بيده أن أتبعه، يلتفت نصف التفاتة لا تفصح عن ملامحه، وبيده الناحلة يحثني على العجل...

قلت لنفسي لا يعقل، هذا جنون، هل ترى ما أرى يا فرند؟ لاذ فرند

بالصمت. لو كان ما أشاهده حقيقة، لكان كلبي نبح، نباحاً وقائياً أو تحذيرياً.

إنه بلال لا محال. يسرع من خطاه ويلوّح لي بيده. وحين بدأ يتلاشى في السراب البعيد التفت نحوي، وصاح: إذا ضاقت بك الدُنيا فسرْ،

إن فيك طاقة يا يوسف توصلك إلى آخر الزمان...

سمّاني يوسف... اسم من أسمائي.

ارتجّ بدني

ودخلت في برزخ الغياب...

لا أعلم كيف وجدت نفسي في هذا الخراب وسط بلدة مهجورة، ليس فيها ما يدل على بشر، أو كائن يزاول حياته.

بيوت من حجارة وطين، متداعية، متهالكة، تئن في عزلة أبدية، متناثرة حتى سفح ذلك الجبل البركاني، تفحصته، تأملته، هو ذلك الجسم الغريب الذي تراءى أمامي قبل يوم أو أقل، أو ربما أكثر.

لا أعرف كيف ومتى وصلت.

هو الآن ورائي قريباً وشامخاً لم يأبه لدورات الأيام، ولا لعصف الأنواء... أو التبدل.

أسود، بركاني لكأنه نجم هائل سقط من الكون، وانطفأ على مهل بالقرب من هذه القرية، وما زالت الأبخرة تتصاعد من جوفه. للوهلة الأولى بدا لي، أنه هو الذي سبّب هجر هذا المكان، بعد سقوطه المزلزل...

وتذكرت تلك الصخور التي مررت بها، لكأنها تشظيات عملاقة تطايرت منه وتدافعت في الخلاء، واستقرت، حتى تبدو كأحفاد له... يرعى عزلتها من عليائه بعينين ثاقبتي الرؤية، موحيتين بالحكمة.

لكأني أقمت هنا، من زمان، أو مررت بهذا المكان بحلم، أو

منام... وهذا الجبل تسلقت إلى قمته مراراً، وأشرفت منه على العالم، العالم الصخري المتناثر نحو الشرق الصحراوي، على شاكلة كائنات أسطورية، أو آلهة قديمة...

هل هو الجبل الطائر الذي صار يسمّى جبال الغربان؟

من هذه الزاوية التي أراه منها، هو نفسه تماماً، مثلما شاهدته في طفولتي. وسألت جدتي عنه، وقالت لي: هذا طائر عملاق سقط من السماء، فانغرس واحد من جناحيه في جوف الأرض، وبقي الآخر طليقاً في الهواء. حاول النهوض والتحليق مراراً وأخفق، فتناثر ريشه وبقيت أصابع الجناح مسننة. استكان واستسلم لمصيره الأرضي، رأسه مرفوعٌ نحو السماء، وعيناه شاخصتان نحو الفراغ الكوني. فتحتان هائلتان يصدر منهما حين تهب الريح، نواح جنائزي. وعندما كنت أسأل جدتي كيف وقع هذا الطائر وتحجر؟

كانت تقول لي كان يحمل على جناحيه خطايا الناس، ولكثرة ما زاد حمله انكسر واحد من جناحيه وهوى... فتناثرت الخطايا في هذه الصحراء...

تُرى هل تلك الصخور التي مررت بها، هي خطايانا؟

لكم يُضنيني هذا الخيال؟؟ يا جدتي...

أذكر كنت أجلس لساعات داخل هذه الفتحات، وأقلد أصوات الكائنات من حيوان وبشر، فيتردد الصوت مرات. يخرج من الفتحة المقابلة، ويلتف، يدخل من جديد ويدور في مسالك ينز منها الضوء

والماء، حتى يتحول الصوت إلى عويل تطلقه آلاف الكائنات في هذا الفراغ...

مهيب وجليل هذا الجبلُ، يصاب بالرهبة من كان يزوره ويجرب صوته في كهوفه.

إذاً هذا هو الجبل الطائر، والبلدة الخراب اسمها «وادي الدموع»، صارت مدينة الجسر، أعرف من سمّاها مدينة الجسر، ولكن من سمّاها وادي الدموع يا جدتي؟

تلك كانت أسئلتي، حين أتمدّد في حجرها لأسألها وتجيبُ أو تغني... حين تتعسّر عليها الإجابة... من بكى هنا سواك يا جدتي، وسوى أهلي يوم قتلوا مهدي؟

كانت تقول لي: «الطيور هي التي بكت».

وهل الطيور تبكي؟

هي تبكي ونحن لا نرى دموعها.

بكت الراعي نعيم يوم قطعوا لسانه. الطيور تحب غناء نعيم. وبكت مهدي. وفي النهاية بكت على حالها يوم عادت من هجراتها ولم تجد شجرها وماءها...

ليس من أحد هنا، باق سواك أيها الجبل الطائر.

هل يبقى شيء من الناس، من أرواحهم؟ مثلما يبقى شيء من أسمالهم، وحاجاتهم.

صرت شاخصاً نحوه، مثل إله قديم عثرت عليه، ليس لديّ قوة

لأتسلقه مثلما كنت أفعل قديماً. لكن لدي رغبة جارفة في ذلك، ربما لكي أمتحن تقديراتي وأتفحص يقيني، لأن حيرتي كادت تقضي على أمر يقيني وشكوكي.. حتى صرت غير متأكد من وجودي الفيزيائي..

لكأن حياتي حلم في منامات أناس آخرين.

عندما رأيت نفسي من موقع مرتفع، عندما كنت أراوح على برزخ الغياب، على شاكلة فاصلة بين نصين، بين الحضور والغياب، رأيتها، تحديداً من هذه القمة، وحرت أكثر في تفسير ذلك.

كيف سبقت نفسي إلى قمة هذا الجبل، لأتفرج على عرجي في متاهتي؟؟ على حافة زوالي، لكأن بعضي السليم يتفرج على بعضي المعطوب!!

وهل بعضي سبق بعضي ليخلصه من فنائه؟؟

حيّرتني رؤيتي!

ثم فطنت إلى فرند، لكأني لمحته، عندما كنت أتأمل بشيء من الرهبة، هذا الجبل. لمحته يروح ويجيء بين الخرائب، يدخل ويخرج من أبواب مشرعة على النسيان.

وقعت في الريب، عندما ناديته، ولم يأت أو ينبح... صرت أتفقد هذا العالم الذي صرتِ فيه. ألتفت يمنة ويسرة، أمامي وورائي... هل كنت في حلم؟ أم في حالة من الغياب الكلي؟ ما الذي جاء بي إلى هنا؟

أتمعن في الجبل، وأتخيل من قمته ما يمكن أن أراه، أو أتذكره، كأن أرى جسدي أجرّه في العراء، وأتفقد جسدي، وأشيائي، وأداء وظائف حواسي، وأنادي فرند. أسمع صوتي، أتحسّس ملمسي، أن أحمل

كمشة من ترابه، أشم رائحة التراب، ورائحة البيوت الخَرِبة. للبيوت المهجورة رائحة، هي رائحة الهجر والنسيان...

صرت أقترب من الأبواب الواطئة، أنحني، وأمدّ رأسي نحو الداخل، أتفقد داخلها، لا شيء سوى البلاء الكامل للعناصر. آنية مارس عليها الزمن فعل الاهتراء.

لكأن الزمان أسيد يذيب الأشياء...

أطال فرند اختفاءه، الأمر الذي زاد من شكوكي، وجعلني أفتكر بما أنا فيه من وضع شبيه بالحلم. ولكن دائماً وكعادتي أستخدم مقادير من وعيي بالأشياء وأحلل، لأخلص إلى القول: إن هذه الالتباسات ليست بجديدة عليَّ.

سمعت نباح فرند، يأتي من مطرح غامض، رحت أتقدم صوب مصدره، وأنادي على شيء من الترقب والحذر. لكن صوته كان يبتعد أمامي تجاه الجبل. شاهدته يعدو صعوداً في سفوحه، وعندما وصل إلى القمة أطلق نباحاً فتردد صداه وتحول إلى عواء يشبه الذي في ذاكرتي، وفرَّ من كهوفه سرب من الطيور السود مولولة حجبت شمس ذلك اليوم وغابت في السماوات البعيدة...

عاد فرند وفي شدقه طريدة، بدا مبتهجاً، بانتصاره.

لم أفتخر بإنجازه، غضضت طرفي، كي لا أخرّب عليه نشوة الانتصار.

هل الأمكنة تتشابه أحياناً مثل وجوه الناس؟ أسأل، أتأمل. أم أني

من هنا بدأت رحلتي، وخطوتي الأولى نحو هذا الجبل الذي شَهِدتْ قمته العالية المشرئبة نحو السماء، إيفاء نذور كثيرة، وليالِيَ مقمرة قضاها الناس يقرعون طبولهم، ويتلون تراتيلهم ليطردوا الشياطين من الفلوات، وبواعث الخطيئة والشر...

وهذه البيوت، فيها رائحة من رائحة أهلي، ولكن أين ولّى أصحاب هذه الديار الخربة؟ هل غادروا يوم حملني والدي وغادرنا على عجل؟ هل غادروا مثلنا إلى أوطان أخرى؟

دلفت إلى داخل إحدى هذه الخرب، لأحتمي تحت بقايا سقف أمهله أو أهمله الدهر في دورات سنيه. تحت نافذته صندوق خشبي مزخرف ومطعّم بالنحاس، وفي أرجائه آنية وأدوات زراعية مبعثرة، تقدمت من الصندوق، فتحته، رفعت غطاءه، فأصدر صريراً. تفتت خشبه باعثاً غبار التلف. خشيت أن تخرج منه تلك الأفاعي الصحراوية، حركت بعكازي محتوياته، ثياب لم يصبها الاهتراء. وفي قاعه أوراق، تصفحتها، مستندات وحجج تثبت ملكية هذا البيت وعقارات أخرى مجاورة لفاضل العنزي.

تذكرت صندوق أهلي، وصورة أخي مهدي التي كانت تخبئها أمي، تخرجها بين حين وآخر وتقيم مندبة الفراق.

وعثرت في ما عثرت، على صور تخص أهل البيت، يعود تاريخ بعضها إلى عشرينيات القرن العشرين، يبدو أنهم مثلنا غادروا على عجل وتركوا ذكرياتهم، لم يتمكنوا حتى من تذكرها كي يحملوها،

وعادة الناس في هجراتهم يحملون ما هو حميم وضروري وخفيف.

بعض الوجوه، في الصورة، كان لها مطرح في بالي، مجموعة من الرجال بالبنادق، كتلك الصور التي أذكرها عن الثوار القدامى... لعلَّ هذا الذي يتوسط الصورة، هو فاضل العنزي، صاحب البيت.

ليس بوسعي التأكد من ظنوني. لكن الذي أعرفه يقيناً، أن كل الرجال الذين لم يتمكنوا من الفرار، أو أصروا على البقاء، اقتيدوا إلى الصحراء، وتُركوا لمصائرهم، حسبما كان يروي والدي. أما نساؤهم، فحملن على رؤوسهن صرراً وعلى ظهورهن أطفالاً، وتشتتن في الأرض.

القرية أمامي، بدت متروكة للهباء منذ زمن بعيد، وذلك الجسر الذي نسب إليه المكان وأصبحت وادي الدموع تعرف بمدينة الجسر، ينتصب فوق الخواء والجفاف. لقد تفلقت التربة في القاع من جور الأيام والعطش.

كل شيء بدا أصغر بكثير مما كنت أراه في طفولتي. أضاف عليه أسيد الزمان اهتراءً وضموراً وامحاءً...

كانت الشمس قد غادرت مستقرها الجحيمي وسط السماء وراحت تنحدر وراء الجبل الذي بدأ يمدّ ظلاله على البيوت، كعباءة الجدة التي تدثر أحفادها في نعاسهم.

حاولت تفسير ما حدث لي، ما رأيت في عزّ الظهيرة. وحاولت تذكر نفسي بين نقطتين في المسافة التي كانت تفصلني عن هذا المكان. لم أفلح، لم أذكر سوى أني مرميّ وسط هذه القرية. لكأني كنت حمولة زائدة في قافلة، تخلصوا مني ومضوا بحمل أخف، وأن قوماً مروا بي وكنت مغمىً عليّ وسط الصحراء، وحملوني أملاً بنجاتي، وحين فقدوا الأمل بذلك وظنوا أني مت، رموني هنا وتابعوا إلى غاياتهم، وكانوا على عجل، إذ إنهم لم يواروا جسدي في التراب.

في الواقع، لا أعرف على الإطلاق، كيف وصلت. بدوت لنفسي أكثر هشاشة وتفاهة، ومجانيّ حضوري بشكل مخز، وأنا هكذا ممدد أو متروك كخرقة تحركها نسائم ساخنة، فأزداد جفافاً ويباساً وضموراً. ولولا إحساسي بذاتي، لما كنت تأكدت من مزاولة وجودي على هذا القدر من الرثاء.

ما بقي من سقف ذلك البيت حماني من الاشتعال الكوني، وما بقي من ذكريات أهله جعلني أتخيّل فلولهم ووشوشاتهم وهم يغادرون بأجسادهم المنكسرة على ظلالهم، إلى مطارح ما خططوا مرة للعبور فيها أو المكوث، تماماً مثل حالي، عندما حملني أبي وكنت أسأله إلى أين يا أبي، فيقول لي على باب الله. ولكن كان ذلك الباب بعيداً، قبل أن أدخله.

صنعه والدي من خشب السنديان في وطنه الثاني تلة سليمان. وتكافل أهل القرية وبنوا لنا البيت الحجري.

من ذلك الباب دلفت إلى بستان الرمان... وأذكر. كنت أسأله:

إلى أين تسير بي يا أبي إلى أين تأخذني؟

ـ على باب الله.

وتصعد البغال تلاً آخر، يطقطق الحصى تحت حوافرها ويتطاير، ويتدحرج خلفنا، ويشيّع فلولنا غيمٌ بعيد، وغروب وردي وأسراب طيور.. أطوّق خصر أبي بيدين ناحلتين، أتشبث بزناره، أغرس أصابعي خلف حزامه الجلدي.

وهل باب الله بعيد؟

يضحك، ويتنحنح ويقول: بعد كم يوم.

وتنحدر البغال من التل، يهب رف من الحجل، وأنا لا أعرف الحجل، يجفل قلبي وأصرخ، ما هذا أبي؟

ـ هذا حجل.

تعدّل جدتي من ركوبها، تاركة خلفها خيطاً نحيلاً من الغناء... تشتم عظامها الواهنة.

ـ ما بك؟ يسألها والدي. وتجيبه على مضض: انعقر قفاي من الحنجلة. شو مفتكرني صبية...

يضحك والدي، يلتفت خلفه ليطمئن على أمي التي تغيب في صمتها، نكاد نسمع تنهداتها، ساهمة في الغيم أو في المدى، يتمايل جسمها مع وقع حوافر البغال.

ـ شو خبارك يا نسرين؟ تعبتي؟

ـ شوي.. بخجل وبمرارة، أجابت، رفعت جسمها قليلاً متمسكة بطوق رسن البغل لتعدل طراحتها التي ثبتتها فوق السرج.

وتقول جدتي: اللي ما معود ركوب الخيل بينعقر.

جاوبتها أمي: هيدي بغال مش خيل.

لا يحمل هذا الكلام آنذاك أكثر من معناه ومدلولاته المباشرة.

كانت أيامنا لا تحتمل خصومات. أيام أثقلها كحجر الرحى مقتل أخي، وهجر البيت.

تدق البغال حوافرها.

غناء جدتي، خيط من النحيب.

«في وجع بقلبي من سنين، في حزن متل الوشم متل كحل العين..»

أذكر ذلك.

أتأمل القسم الباقي من سقف تلك الخربة، لكم بدا لي رحيماً وحزيناً. حزمة الضوء التي تخترقه تؤكد حضور الغياب.

آنية من فخار مائلة على نفسها.

ما أراه، تجسيد بليغ للعزلة.

وغلبني ملاك النوم...

صحوت في حدود منتصف الليل. التبس عليَّ المكان، ظننت أنني في تلك الغرفة التي سكنتها في بيروت في وادي أبو جميل، بين عامي ١٩٧٨ و١٩٨٣.. كأن الأمكنة القديمة تزور أصحابها في غفواتهم، عندما يتعسّر على المرء تفقدها أو زيارتها. تأتيهم في نومهم تضمهم وتحتويهم، ثم تغادرهم على البرزخ الفاصل بين اليقظة والنوم. وتتركهم في حالة الالتباس والشوق.

حرّك نسيم بارد رموشي، وغبار النوم. فتحت عيني: السماء كاملة الوضوح منجمة، هائلة ودانية، واطئة حتى حدود السقف، هكذا رأيتها. استدعاني المشهد الكوني لسكينته، رمى لي بحبال لأربط جسدي كي يرفعني إليه.

شعرت بطمأنينة وبسلام داخلي، وأحسست أني أخف من ريشة طائر عالقة في الجبل الطائر.

وشعرت باستعداد للمغادرة والارتفاع بجسد أخف من روحه، صرت أغمض عينيّ وأفتحهما، إصراراً على الدخول في هذه الحالة والالتحام النهائي في هذا الغيب. ولكن إصراري صار يعطي مفعولاً معاكساً لرغبتي في الدخول في تلك الحالة التي راحت تتبدّد، رغم

إصراري على الانصهار فيها إلى الأبد. صارت تتلاشى شيئاً فشيئاً، وكأن الدنيوي الطاغي الذي داخل النفس هو صاحب القرار النهائي، هو المسيّر للجسد، مهما كان الجسد هزيلاً ومعطوباً وهشاً.

الدنيوي يغلب؟

عند هذا الحد، تأكدت من الحضيض الذي رُمي به المرء، ضحية وجلاداً. حضيض عفن، وقاع فاسد، لا أحد ينجو فيه. إن كان في واحدة من تلك القلاع التي تشبه سجني الصحراوي، أو شريداً في متاهته...

وتذكرت أن هذه الأفكار لطالما كانت تراودني منذ خروجي من بيت معلمي الأول، الشيخ عبدو، حين ختمت أجزاء القرآن. وكنت أجتهد في غير تفسير، ويصاب سيدي بالهلع صائحاً بي: أنت مارق وزنديق يا فتى، تحرّف في كلام الله...

ـ لا، لا يا شيخي، أفكر فقط.

وما زلت أفكر... وأعلم أن الفكر عبء على صاحبه.

هنيئاً للمجنون. يقول شيخي، عندما يشتد بيننا الكلام، ويقول لي: مخك يابس متل التيس، انصرف.

كنت أنصرف وأتركه في حيرته، يعدل عمامته، ويداعب جمر موقده بعكازه، ويشرقط الجمر...

وقلت له سلاماً لمن علّمني فك الحرف لأزرر قميص الحرير...

وأعلم أن سبب كل شقائي، هو رأسي، الذي حشروه مرة في صندوق

السيارة، مثل ذبيحة، وحملوني إلى «عملية تأهيل» كما سموها!!

رأسي، هذا الذي أرغب أن يصاب كل ما فيه بالامحاء التام.

لا أعرف لماذا اجتاحتني الرغبة في البوح، أو في القص. أن أحكي لهذه البيوت المهجورة، حكايتي. أن أقف على نوافذها التي تشبه العيون التي انتظرت عودة ما، وأتخلص من حمولتي في الحكي، من حمولتي من الصور المكدسة في رأسي، كمستودع لمصوّر فوتوغرافي اعتنى بكل تفصيل حتى فاض بالصور وغرق. بدا لي المكان ديكوراً للاعب دراما. لاعب وحيد يطل من الأبواب والنوافذ ويتسلق الجدران المتداعية ويحكي...

تُرى هل هو الدنيوي الرث الذي بداخلي، يتململ في نفسي ويحرّضني على إيجاد منفذ للخلاص؟

وهل الكلام هو منفذ للخلاص؟؟

من أين أبدأ، وأين أنتهي؟؟

أشعر بحبل يشدني إلى رحم أمي، إلى هذه القرية التي لم يبق منها سوى جدرانها المتهالكة. وجسر لم يعد يربط بين ضفتين. ونهر لا نهر فيه. وجبل أبدي كأنه صار أكثر انحناءً عما شاهدته من قبل، لكأنه حاول أن يخبئ أهل القرية حين أجبروا على الاقتلاع، أو حاول اللحاق بهم فأخفق لشدة رسوخه ونهائية مكانه، فصار مطوّحاً، يهمّ بالسّير ولا يقوى على أن يقتلع نفسه.

كانت تروي لي جدتي عن وادي الدموع وتذكرها بالخير...

وادي الدموع. تغيرت وتناقصت بشكل مريع. «اختفى أجمل ما كان فيك ويحييك». كانت تقول الجدة، من غيّر مجراك يا وادي؟

ألا يشتاق الماء لمجراه؟ جميل أن يكون للماء مجريان. في كل سنة يبدّل سيره كي لا يصاب بالملل. جدتي كانت تقول إنهم غيّروا مجراك إلى الأبد، مثلما غيّرنا أوطاننا إلى الأبد.

وعلمت أن تلك الحكاية عن النهر لم تكن لنوم العشيات في ليالي السأم في تلة سليمان، بل هي حكاية وادي الدموع.

«مين غيّر مجراك مين سمّاك يا وادي

مين خلاّك لا ميّ ولا فيّ.

اشتقت يا ستي لريحة بلادي»

وأغفو على تلك الحكايات...

علا غيم الشوق في خاطري...

تراني الآن وأنا في هذا الكلام الذي يتردد في ذاكرتي، بين مطرحين. تلة سليمان في عشيات الحكاية، وهنا في وادي الدموع. وقلت إذا كان حقيقة، هذه القرية هي قرية أهلي، فلا بدّ أن أعثر فيها على شيء منهم بقي هنا.

رائحة ما.

نخلة، حجر، حتى لو محا الهجر الطويل والجفاف كل شيء.

ما زلت مستلقياً على ظهري، وسمائي دانية باحتشاد هائل لنجومها، ونسائم منتصف الليل تحرك في نفسي رغبات دفينة في أعماقي، تزيح عنها التأكسد الذي فعلته سنوات السجن.

ووجدتني مهيأ لها على غير عادة.

شممت رائحة زرع ندي، وتراب يُروى ويتململ في انسياب الماء، ويترنّح.

شممت رائحة ورد.

أغمضت عينيّ فشاهدت نفسي أجري في سهل القمح خلف مريم، وأرتمي على السنابل، أشدها من يدها فترتمي قربي، ونغرق في رائحة القمح والعشب...

يا الله كم هو موجع هذا الشوق والحنين والاختلاط في المشاعر...

نهضت.

لا أعرف بأي جسد، لكأني نهضت بجسد الفتى الذي كنته في ضحى أيام تلة سليمان. وقلت بصوت عال:

سلام لمن علّمني فك الحرف، لأزرر قميص الحرير لأول فتاة على الضحى... شيء من حكايتي مع مريم. واحتشدت في جسدي طاقة

الإفلات منه، من تعثره وأعطابه، إلى عمري الأول، إلى حقل رمان أبي. وحين هممت ووقفت. رأيتني أجرّ ساقي مثل طريدة أو فريسة أخطأها الموت فابتلت بالعرج الطويل، فاستخدمت سلاحي القديم الذي فيه قدرة استثنائية على احتمال ما يصعب حمله.

التهكم...

سخرت من بدني المعطوب، قَبِلْتُهُ، وإن كنت غير موافق. وشتمت عرجي، وناديت كلبي. كان مستلقياً قرب الحائط، تمطى، تمدّد كثيراً، بدا أطول بكثير من حجمه. نهض. انتفض كأنه يتخلص من عبء النعاس والتعب والغبار. تثاءب شاخصاً نحوي، في انتظار مبادرتي أو قراري في فعل شيء.

فعلت.

سرت بهمة المستكشف نحو الجبل. بنية التفقد والتأكد من هذا العالم الذي أنا فيه.

حين وصلت القمة وقفت متأملاً في نواحي الله، شعرت بنوع من جلال الحزن الذي يصيب المرء في مثل هذه الأحوال، وبدوت لنفسي مثل نبيّ وحيد سيبشر نفسه فقط برسالة إلهية، وليس من أحد سواه ليتلو عليه رؤياه.

نظرت نحو السماء، تناقص البدر بعض الليالي، لكن فضة ضوئه كافية لأرى المدى المتاح أمامي. رأيت قرية أهلي من على قمة جبلها الوحيد. وفي المدى الآخر بانت تلك الصخور التي مررت بها، وقد جعلها ضوء القمر قامات بشرية، تعبر ليلها الأخير قبل الوصول...

علا أكثر غيمُ الشوق في خاطري.

قرية، لا روح تحوم في نومها، أو فوق سطوحها المتهاوية... أما النهر الذي يبدو كاملاً من هنا، فما زال مجراه يفلق اليابسة نحو الغرب. أما أشجارها، فلكأن حطاباً تفرغ لإتلافها ليبقي جذوعاً حانية. صفين منحنيين أمام مرور جنازة في طقس وداع. هي هكذا لعلها ودّعت آخر الماء يوم جففوا النبع...

ناداني صوت من حاراتها، صوت يشبه صوت أمي، أن أنزل، أن أعود قبل حلول المساء...

صدى لصوت نداء قديم...

تُرى أين يقع بيت أهلي؟ وقع صوتي على صدري وتدحرج نحو الوادي.

تُرى أين يقع بيتنا؟ صرت أشير بإصبعي نحو الحارات وأخمّن، لكم فعلت هذا وصبية تلك الأيام، كنا نصعد هذا الجبل ونشير بأصابعنا إلى مواقع بيوتنا التي تبدو بحجم علب صغيرة.

هناك بيت فاضل، وهناك بيت عمتي، وهناك بيت أهلي، كنت أعرفه من شجره ومن سطوحه التي أقام عليها والدي خيمة من السعف والقصب، كنا ننام ليالي الصيف كاملة، تحتها.

كنا نقف هنا، حيث أقف، وينفخ الهواء في قنابيزنا، يكاد يحملنا كفراخ، ونكاد نطير... تضاعف الهواء في هذا العلو، وتضاعفت برودته، وضاعفت من شوقي.

بدت وادي الدموع من تلك القمة أكثر هجراً ووحشة وعزلة، أضاف عليها الليل المقمر مسحة من النسيان.

وقدّرت أن بيت أهلي هناك، أشرت بإصبعي مثلما كنت أشير، هي على الطرف الأقرب من السفح، على شمال الجسر، وتواطأت مع نفسي أن يكون ذلك البيت الغامض هو بيت أهلي.

ودخلت مثلما كنت أدخل في واحدة من تلك الفتحات. هناك فتحتان عملاقتان تشبهان من البعيد عيني الطائر، مغارتان تتدرج منهما مغاور أصغر حجماً، سبع فتحات كهوف، تفصل بينها كوى صغيرة متصلة بعضها ببعض مبتاعدة، وكأنها حفرت وفق تدبير هندسي محكم ومدروس. تلك واحدة من عجائب الدنيا. كانت تقول جدتي، عندما تروي عن الجبل الطائر، أو جبال الغربان، في مواسم الريح، حيث يبدأ الغناء.

وقد امتحنتُ ذلك في أيامي التي عشتها في وادي الدموع.

دخلت فتحة وأصغيت: فبدأت للتو مراسم غناء الأبدية، هامسة، على شاكلة نواح خافت، يتكامل إن غنيت معه أو رافقته بنداء طويل، على أي اسم أو على الله.. ويصبح أكثر سطوعاً إن غنيت من مواويل أهل البادية...

ليبدأ الهلع بين الطيور التي تتخذ من كوى هذا الجبل، مسكناً لها، تفرّ من الفتحات معلنة سخطها مولولة في السماوات، يتردّد الصوت ويأتي من أكثر من مكان، وكأن جمهرة من الندابات يتناوبن على الغناء الجنائزي، يزيده هلع الطيور مهابة وفجيعة.

لكأن الأبدية تعلن مراسم جنازات كونية.

يبدأ الصوت هامساً ويتصاعد وتختلط الأصوات وتتجاوب في صداها، ويجيب الصدى صدى آخر، ثم يتدرج هبوطاً لينتهي كخيط من النحيب مجهول المصدر. أو أحياناً في هبوب آخر للهواء يتحول إلى آهات أنثوية، جريحة وعتيقة، تنبعث من أعماق الصخور وتخرج من الفتحات، كمن ينفخ في قصب عتيق.

أما في مواسم الريح، وفي هبوب الشمالي الذي يدخل مباشرة من الفتحة الكبرى، عندها كان أهل القرية يعتلون سطوح منازلهم، يرفعون رايات سوداً ويبدأ طقس البكاء.

هو طقس تطهّري، مصدره الندم.

يستمر هذا الطقس واحداً وعشرين يوماً، يلملمون دموعهم بالرايات التي تجف في الهواء. وفي ذلك حكمة أن يحمل رحيق الدمع غفراناً إلى الجبل الطائر، ليحمي القرية من الزوال...

حكاية الأسلاف المتوارثة من سبعة آلاف عام، وقد حفرت بالسومرية داخل الكهوف... على ألواح الصخر البركاني.

لذلك سمّيت قريتنا وادي الدموع.

حاولت تبيانها على ضوء قمري، لمستها، رأيتها، ولكني غير فقيه بفك رموزها... لكنها هي التي فكت لغز شكوكي أو حيرتي. وهو أن وادي الدموع هي قرية أهلي... كانت في وعيي، وفي مداركي الأولى مدينة. هكذا سمّوها مدينة الجسر، لكنها في أزليتها قرية وادي الدموع، قرية زادها الهجر تخليداً في أسطورتها.

لكأني أذكر أهل قريتي، أنهم بقوا يزاولون هذا الطقس من العبادات في مواسم الريح، ويختلفون مع إمام المسجد الذي كان يصفهم بالملحدين حيناً وحيناً بالمشعوذين... محرّماً هذا الطقس لكنهم لم يأبهوا لكل تحريماته... كانوا يزاولون فعل ندامتهم، يعتلون السطوح، ويلوّحون للجبل بمناديلهم السوداءِ وراياتهم، يغنون ويبكون...

وعنّ على بالي الغناء، مثلما فعلوا.

لكني خشيت أن أصاب بحالة من حالات الوجد التي كانت تصيبني أحياناً، وتنتزعني من جسدي إلى غير مكان وزمان.

وغلبتني الرغبة في الغناء، تذكرت غنائي الرعوي في قرية مريم تلة سليمان، فغنيت ودار طربي بي، حين التف الهواء وتردد الصوت على شاكلة جوقة، من الفتحات... دخلت في حالة غائمة... وللمرة الأولى بكيت...

نعم بكيت...

ربما ما كان ينقصني، هو أن أبكي، مثلما فعل الأسلاف هنا منذ آلاف الأعوام. وفي تلك اللحظة أدركت لماذا بكوا بكاءهم المرير، أولئك الذين وقفوا مكاني هنا. قبل أن يغادروا ويرحلوا.

علا أكثر غيم الشوق وهمى؟؟

لا أدري لماذا انتظرني كلبي عند السفح، ولم يرافقني إلى قمتي. لكأنه أراد تركي في وحدتي ليحرسها من بعيد، أو كأن الكائنات يحس بعضها ما يختلج في أرواح بعضها الآخر.

ولكن يا فرند، لو كان الأمر كذلك لدارت الأرض دورات مطمئنة على ساكنيها البؤساء...

ثم رأيتني خجلت بعض الشيء من نفسي، ومن بكائي، ومن شطحاتي الروحية، وعدت تدريجاً إلى حطامي البشري، إلى هشاشتي وحيرتي، وتدحرجت نحو جسدي ، من تجليات العبور، في هذا المكان الذي يقيناً ولدت فيه، وعدت إليه لتزداد حمولتي، ويزداد شقائي.

لا أحد هنا على الإطلاق. وليس من أحد ينتظر هذه العودة. اشتهيت يداً تلوّح لي عن سطوح بيت أهلي، يداً تضمني. شعرت بحاجة ملحاحة لذراعين يطوّقان جسدي، ويغمران غيابي.

وهبطت، هبوطاً يقينياً من القمة، نحو بيت أهلي المحتمل. تركت غنائي الفجائعي يدور، ويلتف في الفتحات كزوابع البيداء. وتدحرجت نحو الجسر، تبعني فرند، وأطلق نباحاً ترحيبياً. اتجهت صوب البيت الذي عاينته من على رأس الجبل وافترضته بيت أهلي. قطعت الجسر، نظرت نحو قاع النهر، أرض مجراه، مشققة متفسخة، كروح مشتاقة للسلام النهائي. أثلامها فاغرة جعلها ضوء القمر مثل أفواه جائعة.

عبرت الجسر، دخلت في زاروب على جنباته خرب تنتظر زوالها، وفي نهايته، لاح البيت أمامي، بسوره المتهاوي بدت خلفه جذوع الأشجار المقصوفة، إحداها مثل امرأة مصابة بالفجيعة، رافعة اليدين

مائلة على خصرها، والبقية مصابة بالجزع. مبتورة، لكأنها أخوات الأم الثكلى، أتين للمواساة، وأصبن بالذهول...

هو خيالي. قلت لنفسي، هو خيالي يصور الأشياء انطلاقاً من فجيعة صاحبه. ولكن يقيناً، تلك الصورة التي في بالي لصف جذوع الشجر الذي تتوسطه شجرة بغصنين عاريين متضرعين، لا يمكن تخيله إلا على هذا النحو، في تلك الليلة التي يصوغ قمرها المكان وفق تخيلاتي ورؤاي.

وصلت، فخفق قلبي.

عبرت بوابة السور... تلك دار في بالي، أعرفها. بهو تحيط به حجرات ثلاث، وعلى اليسار، غرفة أصغر، كانت تستخدمها أمي للطهو.

شممت رائحة خبز.

في الوسط بقايا من بركة ماء. كل هذا لم يكن قائماً، بل بقاياه تعيد ترميمه في ذاكرتي.

وشاهدت نفسي في فجر بعيد، أخرج مع أهلي من هذه البوابة. تجرّني أمي من يدي، وأحمل فردة من حذائي في يدي الأخرى، جمهرة من الرجال، في الخارج، تحثنا على العجلة. كان يوماً عاصفاً، زاد المشهد غشاوة. من هذه البوابة عبرت إلى الصحراء مكوّماً في شقلبان أمي... لأشهد ما لا أنساه: مقتل مهدي، أخي الذي لا أعرفه، ولم أره مرة إلا في ذلك اليوم، عارياً حزموا على وسطه خرقاً، أو

شرشفاً، يجرّونه نحو قفص المهلكة. لم أرَ وجهه، ولم أذكره إلا في صورة له. احتفظت بها أمي في قاع صندوق الثياب، والصورة الثانية غبشة في يوم كئيب.

نبح الكلب، نباح المستدل على مطرح يتذكره، أو يعرفه...

هذا من ضروب المستحيل.

أنا الذي أذكره ولست أنت يا فرند.

هذا بيتنا. بيت أهلي.

وللتو أدركت أن المسافة التي تبعدني عن تلة سليمان وطني الثاني، تلك القرية النائية في الجرود اللبنانية، بعيدة أكثر من احتمالي على الوصول إليها... لكن كل حنيني فاض في تلك اللحظة إلى تلة سليمان، لكأن المطارح أيضاً تشتاق لبعضها، فوددت لو أن كلا المطرحين في مطرح واحد، أو كانا في معزل عن دورات الزمان.

ولي براق يحملني...

مهما صعدت في الحلم، يشدك الواقع من ساقك المعطوبة، ويرميك على قفاك. حملت كمشة تراب شممتها. عبرت عالياً في السماء طائرة، ترسل إشاراتها الضوئية، مخلفة «عنيناً» موجعاً فيَّ، يصلني شحيحاً. تخيلت المسافرين الذين على متنها، ورغبت لو كنت واحداً منهم... منذ زمن بعيد لم أسمع هدير طائرة مدنية تمخر السماء. مرة واحدة ركبت الطائرة، يوم عدت من قبرص إلى بيروت... لقرار أن أمضي عمري مع هدى، ونتزوج، وننجب أطفالاً... هو الشوق، كما ذكرت في بداية هذه الحكاية، هو الشوق خصال الحنين المؤبدة في روحي.

بعد مضيّ شهر على وصولي آنذاك إلى بيروت، جاؤوا...

جاؤوا.. طرقوا الباب.

سألت هدى من؟ جاوبها عن سفرة الدرج كرصاصة في القلب:

افتحي يا شرموطة.

همّت لتفعل شيئاً.

خلعوا الباب، دخلوا، حزموني كصرة بثياب نومي، وعندما صرخت هدى صفعها أحدهم، برسغ يده، فارتمت تنزف وتنتحب.

كانت ليلة عاصفة، حالكة. لا أذكر إذا كنت تدحرجت على الدرج أم حُملت. اختلطت الجلبة بصراخ هدى، بصفير الريح... وبنباح كلاب في الوادي. سمعت أبواباً تفتح ثم تغلق، ونوافذ تصفعها الريح. لم يتركوا لي مجالاً حتى لسؤال واحد، أو لرجاء من هدى.

«اخرس يا كلب. وسكري بوزك يا قحبة».

هذا ما كنت أسمعه وهم في همكة تربيطي، علماً أنهم ليسوا بحاجة لكل هذه التدابير. لم يكن في نيّتي المقاومة، أو العناد، حتى إن بِنيتي لم تسمح لي بمنازلات من هذا النوع.

وضعوني في صندوق السيارة، وحين أطبقوا الغطاء عليَّ بعنف، أحسست أني أغور في نفسي، ونفسي تغور في نفق، ويتحلل بدني...

لا أدري كم من الوقت سارت بي تلك الآلة، لم تعد سيارة، تحولت إلى آلة غامضة مرعبة، تسير بي إلى المجهول... لم أدر ربما لساعات، كانت تصعد جبالاً وتنحدر في أودية... تلتف، وتدور، وأصبت بالدوار وبالغثيان... وغبت.

صحوت، رأيت نفسي مكوماً خلف قضبان على أرض رطبة، جدران ملطخة ببقع الدم... يروح ويجيء أمامي شبح، لم أرَ وجهه، أرى نصفه السفلي... حزام وحذاء.

ظننت أني في كابوس، أو في حلم مقيت، ولكن عندما تلمست وجهي ورأيت الدم على راحة يدي أدركت.

... وعلمت أن رحلتي في هذا الحضيض الدنيوي الرخيص، ستطول... وتململت في نفسي أوجاع وفي بدني جروح طرية ...

ربما مرت عليَّ ثلاث سنوات أو أقل بقليل، يوم حملوني ثانية إلى شاحنة معصوب العينين. كنا أربعة رجال مكبلي الأيدي والأرجل بجنزير واحد، رموا بنا كمواشٍ نافقة في صندوق الشاحنة. تعثرنا وسقطنا كحطام، رُكلنا وأصابت الأحذية وجوهنا. خنقنا أوجاعنا في صدورنا الهشة، وسارت بنا الشاحنة مسافة يوم كامل. لا أدري إلى أين، لا أرى شيئاً، سوى إحساسي بالضوء. وبأشعة، تخترق كوى الشبك في الشاحنة، تسقط على جبهتي، أو يدي حيناً، وتغيب، أتخيل مسارها، أو أتوقعه عابرةً بنا نحو الخلاء. ترسّخت قناعتي بذلك، بعد أن تضاءلت الأصوات الخارجية، وبدأت حركة المركبات والسيارات تخف إلى أن اختفت نهائياً، وبقي صوت محرك الشاحنة يجعر وحيداً ويمزق صمت الخلاء... يختلط أحياناً بسعال جاف، أو بنكات بذيئة من الجنود والسائق.

كنت أشمّ رائحة عفن بشري، وقيح جروح، يمتزج برائحة دخان الشاحنة الذي يلتف ويدخل من الكوى، ودخان السجائر، روائح تنفذ إلى أمعائي، فأتجالد، وأمد بعنقي نحو الهواء الذي أتحسسه يدخل من الكوى.

كان السائق طوال الطريق «يكركع» ماءً، وينشف حلقي. عرفت أنه مصاب بمرض الكلى، توقف مرات ليبول، فيسخر منه مرافقوه، ربما

كانوا ثلاثة. قدّرت ذلك من أصواتهم، كانوا يتسلون بأكل الفستق. عرفت ذلك أيضاً من رائحته، رائحة الفستق نفاذة.

وكانوا يتبادلون حديثاً عن ضابط أحمق، يشبعهم صفعاً وإهانات. خططوا لقتله وفشلوا، ثم راحوا يتذكرون بطولاتهم، وهي من النوع الدنيء الذي لا يستحق أن يتذكره إنسان، كسرقة بيت في الجبل، واغتصاب فتاة في العاشرة من عمرها. جباية منظمة على حاجز في السهل، يتقاسمون غنائمها مع الضابط نفسه الذي له الحصة الأكبر. وحكاية طالت عن الراهبة التي اقتادوها إلى الأحراج... لا أريد سماعها، ولا أريد أن أعرف كيف تناوبوا على اغتصابها، وصلبوها على جذع شجرة الصنوبر بعدما انتهوا، وشاهدوا أحد الرعيان يفكها، ويحملها كخرقة مبللة. ويركض بها في الحرج صارخاً، فأطلقوا عليه رصاصهم... كنت أحاول أن أضغط براحتي على أذنيّ ولكن لا حيلة لديَّ، يداي مكبلتان... تمنيت لو كنت أصمّ. حاولت أن أغفو على رتابة هدير الشاحنة، أو أن أصاب بشيء ما لأنفصل عن العالم، عن هذا الحضيض، تحولت أصواتهم في مسمعي إلى استغاثات فتاة وإلى عويل نساء، إلى تمزيق لحم بشري، وطحن عظام، لكأن رحى تدور في رأسي، ونفذت إلى أعماقي نتانة تخرج من جوفهم وهم يطلقوا قهقهاتهم، التي تتسرب من الشبك الفاصل بيننا وبينهم في المقدمة جانب السائق.

وصلنا...

قال أحدهم، تحديداً الذي كان يتباهى بعملية سحل قام بها، حين ربط إلى سيارة الجيب، شاباً وجره في السهل، بين سنابل القمح، لأنه مزّق صورة الرئيس عن جدار دكان الحلاقة.

وصلنا إلى الحدود. قال، تلك الشاحنة الأخرى تنتظرنا على اليمين...

الحدود؟؟

عرفت الحدود من رائحتها، هي مزيج من رائحة الأجناس البشرية والإثنيات، والبضائع، عرفتها من اللهجات وأصوات حرس الحدود، وقدّرت شيئاً آخر، أنهم يعيدونني إلى بلادي إلى حيث هربت مع أهلي منذ سنين، ولكن بالتأكيد ليس إلى دياري... عرفت هذا من لهجة أهل البلاد.

وأصبح تقديري يقينياً، عندما طُلب من السائق أن يتراجع إلى الخلف ليلتحم صندوقه بصندوق الشاحنة الأخرى التي تنتظرنا، لكي تتم عملية التبادل، بدون جلبة، أو مخاطر محتملة، وتحاشياً لفضول الناس.

أي تبادل؟؟ بماذا يبادلنا هؤلاء؟! كأننا بضاعة مهرّبة. تراجعت الشاحنة، بتوجيهات من الخارج. يمين، يسار، ارجع.. ارجع.. تمت عملية التحام الصندوقين بارتطام خفيف هزّنا.

المطلوب أن نجر أقدامنا وأجسادنا بهدوء، لندخل صندوقاً آخر. وبموازاة حافة الصندوق كي لا نصطدم ببدلائنا. شممت رائحة بدلائي الذين فعلوا ما فعلناه تماماً. أصوات الجنازير تقرقع على حديد

الصندوق، وتعثر خطواتنا. احتكت أجسامنا ببعضها عند الالتقاء، بفوضى أحدثها تعثر الخطى وثقل البدن الخدر، شممت رائحة أجسامهم وعرقهم وأنفاسهم الموحية بالجوع والعطش.

وددت بحرقة، لو تشقّ عصبة عيوني، لأرى وجوه هؤلاء الذين مروا بي.

جفّ حلقي.

تمت عملية التبادل.

انكسر شيء عميق في داخلي

...

انطلقت الشاحنات باتجاهين معاكسين، وانطلق خيالي نحو المجهول...

لم يتبدل شيء في الداخل، سوى اللهجة، لهجة السائق والجنود المرافقين. أما في الخارج فكان التبدل يحدث دائماً بمعزل عن مشاهدتي له. كنت أحسه وأشمه. سخّرت هاتين الحاستين للتقصي عما أنا فيه، وعن أحوال العالم، عن قاعه العفن أو عن هوائه الفالت في أبديته.

علمت أننا نسير في الطريق الصحراوي.. هواء الصحراء بدأ ينفذ من فتحات الشبك إلى أعماق الروح.

أعرفه جيداً.

لقد امتلأت به الرئتان من زمان... منذ الشهقة الأولى يوم ولدت، وتنشقته لأكثر من سنوات ثمان، قبل أن تتغير الأوطان ويتغير الهواء والأحوال... تنشقته في وادي الدموع...

لهجة السائق وجعير الشاحنة، وهواء الصحراء، فتقت أوجاعي العتيقة، ذكّرتني بذلك اليوم الذي حملتنا فيه شاحنة عسكرية، حملتني وأهلي في عملية الهروب، بعد مقتل أخي مهدي. وربما عبرت بنا الطريق ذاتها، قبل أن نصل إلى الحدود، لتحملنا البغال إلى تلة سليمان.

الهواء الصحراوي ينفذ إلى رئتي بجفافه، هواء الليل.

أعرفه...

أحسه.. رائحته مشبعة بعطر عشب السدر وشجره...

السائق يغني، ليكسر، أو ليغلب نعاسه.

لامشي لكم في الليل يا عنيد يا يابا

يجيبه الجند: هيّا على هيّا

وإن تعبت الرجلان يا عنيد يا يابا

لامشي ع ايديا..

يضحكون. يتنهدون. ثم يأخذهم الصمت الذي يفتح الهدير في جداره جرحاً، يلتحم للتو خلفه ويواصل كثافته...

ويعاودون من جديد الغناء...

لون خمري لا سواد ولا بياض...

متل بدر الدجى وأشرف ع. الرياض...

وثانية يغرقون في الصمت. ويتحول هدير الشاحنة إلى رتابة تشي بالمتاهة...

تسلوا بالغناء. ثم تسلوا بنا وبأسئلة، غير مكلفين بها. ولكن من يمنعهم من طرحها؟

- سأل: من منكم فلان؟

- أجبته أنا.. فضحكوا.

- هذا أنت اللي شاغل الحكومة؟؟

- لم أجب.

- تخيّلناك، أضخم حجماً. بيقولوا إنك خطير؟

سكت. لا أعرف ما هو الخطر الذي أشكله، بمفردي، على عالم لا أملك فيه سوى الكلام...

خفت، واختلط خوفي بشيء من السخرية من نفسي، عندما علمت أني زعيم حزب، مناوئ، يخطط لإطاحة النظام، من وادي أبو جميل في بيروت، وبالطبع أنا لسته على الإطلاق.

ربما اسمي المستعار؟؟ كل أسمائي مستعارة. اسمي القديم دُفن في وادي الدموع.

عبد الجليل الغزال.

هنا حيث أنا الآن... أستعيد ذلك اليوم المشؤوم...

على بداية الفجر، دخلت الشاحنة البوابة الرئيسية في السجن الصحراوي... هناك، فكوا عن عيوني.

ورأيت ما رأيت.

النسيان نعمة ليتها تدوم...

نبح فرند.

نبهني إلى عالمي القديم، حملني من صندوق الشاحنة إلى بيت أهلي، دفعة واحدة. وكأن الذاكرة آلة ضوئية تضعك للتو حيث تشاء، من ماضيك، وتضيء مطارحك ودروبك، حتى لو كنت معصوب العينين. تفتح ثقباً في العصبة السوداء لتتلصّص منه، لتسترق منه ما تود أن تراه... وكأنك ترى...

وجدتني جالساً على حجر من حجارة بركة الماء، أحرّك بفرع يابس من سعف، التراب...

قفلت تلك النافذة من ذاكرتي على مشهدها الأخير. وافتكرت بما ينبغي أن أقوم به اليوم، الآن.

هبّ نسيم وحمل عطراً لا أعرف مصدره. عطر شجري بري، حرّك في روحي وعول الوحشة، فتنهدت. ودخل الهواء إلى رئتي، مثل ماء يتململ في تربة معفرة يابسة.

انتمائي القديم إلى هذا المكان، حرّض في نفسي رغبة الحياة. فالأرض التي سكنها البشر، حتى في حالة هجرها النهائي، تبقى فيها

مودعة لمزاولة العيش، قد نعثر عليها في الزوايا، فوق العتبات، أو بين الصخور، في بئر، أو في سفح الجبل حيث كان يتدفق الماء، أو في صندوق متروك في الخرائب، أو تحت حجر الزاوية...

عندما وصلت إلى هذا اليقين، صدمت من تحولاتي أو من قناعاتي. أيعقل الذي خرج من مؤبده ومشى دون غاية أو هدف واضح، هو أنا الآن، يخطط للبحث عن وسائل للمكوث، والبدء بحياة في أرض لا حياة فيها؟؟

ضحكت. واستعنت بسلاحي، هو المسعف على الاحتمال: التهكم.

ونبحت... كما أهلي القدماء في متاهاتهم.

نبح كلبي.

أرأيت، منسوب الأمل عندي بدأ يعلو إلى حد مضحك؟ ولكن في الأساطير والحكايات ينبغي لكل منا، وجود أنثى كي تعيد دورة الحياة المتوقفة هنا... بالنسبة إليك، أعلم أنك مخصي، فعلها بك ذلك السافل. أما أنا، فالذي فعلها بي، هو الزمان. أضف إليه التلف الذي أصاب دودة الظهر، وسبّب عرجي.

على كل حال، قبل أن أتدبر أي أمر بنية البقاء أو المكوث هنا، لوقت يطول أو يقصر، سأصعد هذا الجبل ثانية مع بزوغ الفجر، هناك أستطيع أن أقدّر ماذا ينبغي أن أفعله، لعلّ القمة تلهمني بسبل ما من خلال إشرافها على المدى وقربها من السماء...

وافتكرت أن من الأشياء التي أنوي تحقيقها، الحفر على صخرة عالية: اسمي، وتاريخ مولدي، وأنوّه بأن كلباً كان برفقتي، كان مفترساً عند السجّان، وصار صديقاً للسجين. ربما يستأنس بذلك العابرون هنا إن عبروا. لغاية التقصي، أو في شتات ما، لقوم يطردون من بلادهم.

لا أعرف، تحديداً، ما هو الدافع الأعمق من هذه العملية الشاقة التي تستدعي وقتاً، كتلك الحكايات القديمة المحفورة على جدران الكهوف برموز لا أستطيع حلها وفهمها... ولكني سأختصر قدر الإمكان من حكايتي، سأكتفي بالجوهري منها... ربما الدافع من كل ذلك هو رغبتي في أن أحداً ما ذات يوم، يعلم ما حلّ بوادي الدموع، ما حلّ بأهلها، وأني واحد منهم، وإذا ما انتهيت، يعلم أني انتهيت هنا. لا لرغبة نقل رفاتي إلى مسقط رأسي، فهذا هو مسقط رأسي يقيناً، بل لرغبة أن يبقى شيء مني غير الرميم والزوال. ثم لا تنسَ يا فرند، أنني شاعر، وغالباً الشعراء لا يرغبون في الفناء، بل يطمحون لتخليد ما يذكّر بعبورهم.

الناس جميعاً هكذا.

ثانياً...

لاحظت أني بدأت سلوك الخطابة. وكأن حشداً يصغي إلى قرارات حاسمة سأتخذها، ومصيره معلق بها!!

لاحظت أنت يا فرند أنني أخطب؟ ماذا تريدني أن أفعل، لو عثرت على ماء، وبدأت حياة زراعية كما أسلافي القدماء؟

ماذا أفعل بما يبقى من الوقت، بعد تأميني لتلك الحاجات اللعينة لي ولك؟

عليّ فعل شيء آخر لأقتل الوقت. خرج فعل القتل من حلقي، كالسهم وانطلق.. مرتداً عليّ يراود إصابتي في الموضع الأدق.

أعلم أني والوقت في مبارزة ومنازلة، وهذا توصيف للقول إنني مهما فعلت خاسر. وأردد تلك العبارة الحكيمة دائماً: أشد الأعداء فتكاً هو الزمن...

ونظرت إلى كلبي.

وأنت ماذا ستفعل عندما أكون في همكة الحفر. ستلازمني وتتفرج عليَّ، لم تخلق لمزاولة مثل هذه الأعمال. تتفرج علي وأنا أكد في الصخر، تتأمل بعينيك الزائغتين في الأرجاء المترامية الخالية والمهجورة، وتطلق نباحك المجاني.

عليك أن تعلم: أنت أيضاً سوف يصيبك التلف الذي يحدثه العمر. ولا يفترض أن تربط مصيرك بمصيري، وأنا كما ترى على حافة زوالي...

ألا تذكر مسقط رأسك والبلاد التي أتوا بك منها، وكنت صغيراً، «جرواً» خسعاً، تتعثر في بولك، ولا تجيد النباح جيداً وتتعلق بأثداء أمك وإخوة لك، وتسأم منك ومنهم...

ألا تذكر شيئاً...؟

هذا مؤسف ومحزن؟

ليتني أعلم إن كنت تفهم ما أقوله، أو تذكر شيئاً مما حدث معك. من أين أتيت وأين كنت وأين تصير...

هل يراودك الشعور بالانتقام من الذي حوّلك مرة إلى وحش؟ أم أنت متسامح؟

رابعاً:

لا أعرف يا فرند. انتابتني نوبة الخطابة. تبدو هذه الخصال متأصلة في القوم، ما إن يجد أحد منا الآخر يصغي حتى يعتلي روحه كمنبر ويبدأ... أولاً وثانياً وثالثاً... حتى لو كان «أجلّك» كلباً... شيء غريب، الذي في هذه الطباع أو الخصال اللغوية. ما إن تتاح فرصة لأحد حتى يظن نفسه الحجاج بن يوسف، يمتشق سيفه ويبدأ هياجه اللغوي...

خامساً:

إني أمازحك، وأمازح روحي، ليس من خامس ولا من أول ولا من آخر. تراني أراوح في هلوساتي، مثلما أراوح في مأزقي. أتحايل على إيجاد مسارب للخروج فأتزحلق كحجر يتدحرج من السفح نحو القاع. وأترنح قبل أن أهمد، لأرفع رأسي.

سمائي بعيدة.

غداً سأبدأ بالبحث عن عدة للحفر، وسأحفر معظم هذه الأفكار من باب التسلية. فقط أريد أن أجد سلوة أخرى لوحشتي، غير استعادة الماضي والصور، وغير الأمل... وفي الوقت نفسه سأبحث عن الماء.

وغالب ظني، سأبدأ بالبحث عن الماء لأنّ مائي أصبح على آخره...

القمر أعلن أفوله.

وجافاني النعاس. تمددت وسط الدار. جثا قربي فرند. رفع رأسه نحو القمر وأطال التمعن فيه، صار يحرك رأسه يمنة ويسرة، لكأنه في حالة من الشكوك في ما تراءى له أو شاهده، وما الذي يشاهده في فلول قمر متناقص؟

صرت أراقبه، أمتحن ذكاءه. ولفتني في السماء سرب من الطيور المهاجرة، ما كنت أدري أن الفجر قد بدأ بالنسبة إليها في هذا العلو، وتابعت من مكان ما هجرانها...

الأمكنة وإن هُجرت طويلاً وأصابها التلف، تبقى تحتفظ بودٍ لأهلها.

وأنا واحد من أهل هذا المكان، شعرت بسحابة من السلام عبرت جسدي، وأنا ممدد كجذع من تلك الجذوع التي هوت بعد عناد طويل مع الوقت والريح والاهتراء، لتستريح في عملية التحول وعودتها إلى ترابها.

لم أفلح بشكل واضح في تذكر الصبي الذي كنته في حدود هذا السور المتداعي، بمقدارٍ كافٍ يجعلني أعيد رسم ملامح له، وهو يلهو مرة بسعف النخيل. لكنني تخيلت أني فعلت ذلك كثيراً. وكان أبي ينهرني كي أكف عن اللعب، كي لا أصاب بالحمّى تحت شمس النهارات...

وأن أُمي كانت تحشر وتخبئ رأسي تحت عباءتها، عندما نزور الأقرباء أو الجيرة، أو تحمّلني سعفة أحتمي بها من سعير الشمس، ونحن نجوب الأزقة. ولعل ذلك هو الذي دفعني إلى أن أقصف من شجرة السدر «تربوناً» للذكرى.

صرتُ ألهو بتأليف صور ومشاهد لنفسي، صبياً في بلدتنا الأولى،

وأهرب بتلك الصور من أسئلة تلح عليَّ، أهرب من التفكير بما حدث في هذا العالم في غيابي لأكثر من ربع قرن.

كانت مقدرتي على التحليل تشير إلى أحداث لا بد من وقوعها، ومركز معلوماتي الوحيد هو سوء ظني بالعالم الذي عشت فيه. ثم حكايات رفاقي في السجن، وانعدام أملي بالمشروع الإنساني، كانت وقوداً يدفع عربة أفكاري نحو التنبؤ. فالذي حدث في غيابي، بالتأكيد هو أسوأ من الذي حدث في حضوري.

لا أريد أن أعرف، قلت لنفسي، فهل أسوأ من هذا الهجر في وادي الدموع، مدينة الجسر، التي لا مدينة فيها سوى الجسر...؟

احتقرت أسئلتي ورغبتي في معرفة ما يدور في العالم.

ونبحت...

ثم استسلمت لنسائم الفجر التي بدأت تحرّك أشياء أخرى في نفسي، وهي تمرّ على وجهي كحرير النوم، وأكثر ما كانت تحرّكه هو الشوق، أو الحنين للذي كنته هنا قبل سنين. والحنين موجع، موجع ويستدعي زفرات عميقة، وحدها الممكنة فقط، وسوى ذلك، عالم من الفقدان. وأعتقد لو أن ذلك الهبوب من الحنين، يسيطر على النفس لوقت يطول ليفتك بها، ولكنه يروح ويجيء كما حركة الهواء.

صرت ألهو بتأليف صور عن أهلي، في أمسيات يجتمع فيها الربع، يتشاورون في مسألة الزرع، أو يتحدثون عن شيء غامض، لا أفهمه. كانوا يرمّزون في كلامهم، وتطغى على وجوههم صورة واحدة

محفورة في بالي، يوم مشينا في فجر مشابه، مشت البلدة بكاملها لمشاهدة مصرع أخي مهدي، هذه الصورة، كنت دائماً أحاول استبعادها، أو دفعها إلى النسيان المؤقت، أو أحاول تأجيلها ولكني دائماً كنت أقع أسيرها.

كنت قد كتبتُ عنها كثيراً في أيام بيروت، كتبت ومزقت أوراقاً كثيرة، لأتطهر منها، أو لأبرأ. وقد تركت منها الكثير مع هدى، هي بالتأكيد احتفظت بها... وكم كانت تشفق عليَّ وأنا أتعثر في وصف ذلك اليوم الذي سمّوه «يوم النصر» وظننته عيداً من أعياد البلاد، قبل أن ألحظ على وجه أمي خيوطاً من الدمع تنساب وتتساقط كالدلف على وجهي، وأنا أتمعن في عينيها لأعرف سبب بكائها.

كلما لاحت في بالي هذه الصورة، أول ما أراه أرى وجه أمي وهي تشدّ على أصابع يدي براحتها كي أكف عن أسئلتي، ثم تتوافد الوجوه، والقامات الحانية... تركت الكثير من هذه الحكاية على الطاولة، لملمتها هدى بالتأكيد وخبأتها.

لكأني أحسّ الآن، بدمعها يسقط على وجهي وحيرتي...

احمرّ الشفق.

تنفس المدى الصحراوي سأمه، وتثاءب الجبل الطائر.

ألا تسأم الصحراء من اجترار عزلتها وتكرارها؟

سؤال، سخيف. للتو، أدركت اني أسقط أحاسيسي على هذه الأبدية. وقلت: دعك يا بني آدم من هذه الأسئلة وافتكر بما أنت فيه.

أنت الآن في مسقط رأسك، تفقد مع الفجر ما بقي من أثر وظلال وأطياف، وأنفاس للذين رحلوا.

فعلت ذلك.

لا داعي للطرق على الأبواب. الأبواب مشرعة لاستقبال العدم، وأسيد الزمان. النوافذ بدت محاجر عيون هدّها الانتظار...

لا شيء هنا في بيت أهلي.

إن صح تقديري، فقد وُلدت هنا في هذه الحجرة التي تطل نافذتها على الجبل، سحبتني «القابلة» آمنة، على مهل من رحم أُمي، وصفعتني على قفاي وهي تحملني باليد الأخرى من القدمين كفروج، فصرخت صرختي الأولى، بعد الصفعة الأولى.

لكم كانت صفعتك يا آمنة رحيمة.

أدخلت الهواء إلى رئتي...

تنشقت مقداراً إضافياً من الهواء...

زفرته مشبعاً ومحموماً بالحسرات...

قالوا لي إنني بكيت كثيراً في شهوري الأولى. أظنه اليوم، هو بمثابة البكاء الاحتياطي الذي صرفته، أو بكاءً مقدماً على الحساب مع صروف الدهر، أو عربوناً للأوجاع القادمة. على كل حال، قالوا إنني بكيت كثيراً في شهوري الأولى، وكنت أكف عنه حين أحمل إلى هذه النافذة المطلة على الجبل الذي تتناوأ من خلفه الصحراء وتغوي في التيه.

يومها نذرت أمي للجبل الطائر خروفاً إن خف بكائي.

وبرئت.

عبرت السماء سحابة...

فرّ من روحي طير نحوها...

من هذه النافذة رأيت العالم للمرة الأولى، وتدرب سمعي على الغناء الذي كانت تبدأه الرياح في مراسم جنازات كونية. ولعلّي في ما بعد اكتشفت سر مخزون الحزن الذي في غناء جدتي.

في يومي الثاني في وادي الدموع، احتفلت الطبيعة بعودتي ناقصاً إلى أرض ناقصة وبلاد مهجورة. هبّت ريح الشمال ودار الغناء في القمة العالية... شدني الصوت مثلما شدني صبياً إلى القمة...

وشاركت الفجر جولة استطلاعي على عالم مهجور متروك للنسيان.

تواطأت مع نفسي ومع كلبي، أن نحاول العيش في هذا الخراب ولو لحين. هبطت إلى السفح حيث قاع الوادي، رأيتُ في انبلاجات الصخور، نبتاً أخضر، سمعتُ كركرة ماء.

ما رأيته كان أكيداً، ولكن ما سمعته بدا لي تهيؤات. إنه جريان غامض للماء في جوف عميق، وليس من ماء واضح.

ترطبت فروع يابسة في بدني.

سندت رأسي على انزلاق بلاطة صوانية. أحسست بالماء يجري تحته، تحسست رأسي براحتي باحثاً عن بلل أصابه.

لا شيء.

فرميت رأسي على الأزلية وأصغيت.. أصغيت طويلاً.

ماء يجري في باطن عميق.

هو صدى النهر.

صدى جريان قديم، أم هو النهر الذي حوّل مجراه؟

هل هي الحكاية؟ يا جدتي؟ حكاية النهر الذي غيّر مجراه إلى الأبد. بعد غضب إلهي على القرية التي جحد أهلها بنعمة الماء؟

ما سرّ هذا الإله الذي يتفرج على تفسّخ الأرواح البشرية، مثل تفسّخ التراب في مجرى النهر، وهي تمشي نحو السراب وتيبس كشجرها؟

فسّخ العطش أجسادها. فارتمت على وجوهها تلعق الرمل...

ما هذا الإله يا جدتي؟ ما هذا الخيال؟

لكم ظننت يا جدتي أن حكايتك في تلك العشيات، هي من صنع خيال محايد، من أجل النعاس والنوم، على عودة النهر عند اشتياقه لمجراه القديم... ليست حكاية لنومنا القديم. هي حكاية اليقظة المطلقة...

... وعرس الطير. تروي جدتي

كانت الطيور تأتي في مواسم التزاوج من أوطانها البعيدة، تقيم طقسها السماوي، عند الجبل الطائر حيث تمتد غابة على ضفتي النهر... وتمتد بعيداً نحو سهل الدغول... تحوّل سماء وادي الدموع، وشجرها إلى عرس صاخب بالغناء، يصاب بعدواه ناس البلدة، فيقيمون أعراسهم ويختلط الأرضي بالسماوي، حتى يظن من يعبر في هذا العالم أن الأبدية تقيم زفافاً لنعمة الحياة.

وتدور الاحتفالات والهرج والرقص والغناء على مدار سبعة أيام، يشارك فيها مغنو الجبل الطائر. يصعد النسوة والرجال إلى القمة،

يبدأون في الكهوف مراسم الزفاف. فتفرّ من مخابئها الفراخ وتشارك في الزقزقة وتتعثر في طيرانها فتلوذ بأعشاشها فاغرة مناقيرها، مذهولة من فرح كوني باغتها...

بعد كل موسم كانت النسوة ينذرن أطفالهن للجبل، ويشعلن البخور في كهوفه، لكي يأتي الموسم الآخر خصباً، والماء دفاقاً.

هي مواسم أبدية، بدأت مع النهر، وسهل الدغل والجبل الطائر، ربما قبل أن تقوم وادي الدموع قرية للرعاة، أو مطرحاً مأهولاً. لا تاريخ لها يحدد بداياتها. ولكن هناك تاريخ حدد نهايتها، يوم قرر الحاكم تجفيف ماء النهر، وتحويل مجراه. وحين جاءت الطيور في موسم آخر في هجرتها إلى وادي الدموع لتقيم عرس الطير، لم تجد الغابة، لتحوك أعشاشها، ولا شجر النهر ولا ماءه، زاغت في الفضاء نحو سهل الدغول. لا شجر هناك، لكأن أيادي من فؤوس هائلة تكفلت بإبادة كل ما هو شامخ ويأتيه الطير، أو الإنسان.

تاهت الطيور في فضاء وادي الدموع، نائحة، مطلقة عويلها... تروح وتجيء في المدى السماوي بهلع، تهوي بأسرابها نحو النهر، لا ماء في النهر... فتعاود التحليق بفوضى الشتات التي يسببها الهلع والخوف والذعر من المجهول. تدخل وتخرج من كهوف الجبل، وتعاود الدوران في متاهة السماء... إلى أن بدأت أسرابها تتهاوى من التعب تحط على أغصان يابسة. أو في كوى جدران البيوت وعلى ضفتي شجر النهر المبتور. امتلأت وادي الدموع بالطيور النافقة، منها

ما مات على الأغصان اليابسة أو في أعشاش لم تكتمل، ومنها في قاع النهر، أو داخل البيوت المهجورة، لم يكن من أحد هناك ليشهد موت الطير وفناءه.

كان قد عمّ القرية الفناء سابقاً، قبل عرس الفجيعة الأخير،، عرس الطير.

لذلك سمّوها يا جدتي جبال الغربان؟ صارت موطناً «لغراب البين»، والكواسر التي تقتات من التفسخ البشري، ومن بقايا الطيور المهاجرة؟؟

صارت محطة في متاهتي، لم أخطط حتى للمرور فيها أو تفقدها كمسرح للحكاية. ولكني، لكي يكتمل جنوني، أو شقائي، حُملت حملاً إليها، ليزيد حملي.

لا شيء.

لا شيء في بيت أهلي. حطام أعشاش للطيور في الكوى ذكرتني بمواسم أعراسها. كأن الطير أقامها ومات قبل أن يأوي إليها. لتضع فيها الإناث بيضاً... وتخيلت الهلع الذي أصاب السرب، حين دنا من شجره المفتقد وهبّ صارخاً... منتحراً على جفاف عالم مهجور...

لا شيء...

آنية صدئة تصغي لترانيم عزلتها، وبقايا رماد في موقد النار في حجرة الطبخ.

لكأنها مصيدة، أو فخ آخر نصب لي، فحرت ما بين الإفلات منها

والمضي في سبيلي، إلى فنائي أو بين البقاء في فنائي، أو البقاء في البين بين.

أكلتُ حبة تمر وتركت النواة في فمي، ورحت أجول في الأزقة والحارات، أدخل في بيت وأخرج من آخر، لا لتوقعٍ دفعني للقيام بذلك، أو لغاية البحث عن غرض يسعفني، يسعف احتمالي، بل لشيء مجاني يشبه مجانية الاحتفاظ بنواة التمر في الفم لوقت طويل.

هي حكمة صحراوية.

أصبحت بعد وقت من التسكع الذي زاده عرجي بطئاً، خارج البلدة، ورائي الجبل الطائر بشموخه الأسطوري.

تراءى لي في المدى التماع معدني منبسط وطويل، يظهر ويختفي في التماعاته على ذلك الضحى، مستقيم وحاد كجرح أسود في جسد الصحراء.

وعوى في مسمعي صدى صوت آخر عتيق كان ينتزعني أيام طفولتي، من الدار لأجري طويلاً خلفه، أو بمحاذاته وصبية أشقياء، في غباشات أيام بعيدة، كنت أقف على سطح البيت، وأتابع فلوله وهو ينفث دخانه حزاماً أسود ينداح وراءه ويتلاشى تدريجاً، ويغيب في الأفق ويغيب الصوت معه.

إنه القطار...

كان يترك في نفسي رغبةً ما، ونوعاً من القهر، صار لاحقاً نوعاً من الشجن، والإحساس بالفراق...

وزاولت عرجي...

أحمد علي الزين إعلامي وروائي لبناني. عمل في الصحافة المكتوبة والمرئية والمسموعة منذ أواخر السبعينيات. ومنذ ٢٠٠٣، يعدّ ويقدّم البرنامج الثقافي «روافد» على قناة «العربية». صدر له في الرواية «الطيون»، و«خربة النواح»، و«معبر الندم»، ونصّ مسرحي بعنوان «رؤيا...».

«تنجح في استدراجنا إلى مواجهة مكشوفة مع أنفسنا كما مع الواقع العربي الغارق في عتمته وخوائه».

شوقي بزيع، «السفير»

«نصّ روائي جميل ناضج ...
يضعنا على حافة التذكّر وفي قلبه».

سلمان زين الدين، «الحياة»

«في هذه الرواية - القصيدة، يذهب أحمد علي الزين بعيداً في تعميق رؤيته للوجود والعالم، وصقل أدواته الفنّية التي يأتي التأمّل في مقدّمتها...».

سيف الرحبي، «الاتحاد»

«حكاية تتقدّم رويداً وتستقي من ماضيها الكثير».

رلى راشد، «النهار»

DAR AL SAQI
دار الساقي

ISBN 978-1-85516-641-7
9 781855 166417 >